تأليف : الدكتور باولو دي لاشيلا

أخبار الحملة العسكرية التي خرجت من طرابلس الى برقة في عام ١٨١٧

ترجمة : الدكتور الهادي مصطفى أبو لقمة

منشورات دار مكتبة الفكر
طرابلس - ليبيا

أخبار الحملة العسكرية التي خرجت من طرابلس الى برقة في عام ١٨١٧

NARRATIVE OF AN EXPEDITION FROM TRI - POLI IN BARBARY TO THE WESTERN FRONT' IERS OF EGYPT IN 1817 .

الطبعة الأولى
آب (اغسطس) ١٩٦٨

تأليف : الدكتور باولودي لاشيلا

أخبار الحملة العسكرية التي خرجت من طرابلس الى برقة في عام ١٨١٧

ترجمة : الدكتور الهادي مصطفى ابولقمة

منشورات دار مكتبة الفكر
طرابلس - ليبيا

الاهـــداء

إلى الجـــامعة الليبية التي لا تتوانى
عن تقديم كل مساعدة إلى طلابها .

من مقدمة المؤلف

كنت خلال إقامتي في طرابلس ، كضيف زائر على صديقي قنصل سردينيا ، في غاية الشوق لامكان توفر فرصة مناسبة اتمكن خلالها من زيارة المنطقة ما بين طرابلس وخليج سرت ومنطقة البنتابولس بغية ملاحظة المعلومات الجغرافية وتدقيقها ، ولظني ان منطقة خليج سرت بتعمقها الكبير داخل الارض اليابسة لابد وان تكون غنية بحياتها الحيوانية والنباتية ، ولأتأكد من المعلومات الكثيرة التي خلفها السلف عن منطقة برقه وخاصة نبات السلفيوم الذي ينمو في أرض تغل ثلاثة محاصيل في السنة الواحدة ،ولاتذوق تلك الفواكه اللذيذة التي قيل انها كانت

توجـد بكثرة في حدائق ايوسبريدس . ولهذا فأنا في غايـة السرور والفرح لأن أملي سيتحقق قريباً بمصاحبة الحملة العسكرية إلى برقه مما سيوفر لي عامل الحمـاية وهو مـا لا يمكن تحقيقه بدون مصاحبة مثل هذه الحملة العسكريـــة الكـــبرى .

تقديم المترجم

في ١٨١٧ زمن حكم الباشا يوسف القرهمانلي لما كان يعرف بـ ايلايتي طرابلس وبرقه ، كان الدكتور باولو دي شيلا يقيم ضيفاً على صديقه قنصل سردينيا . امتازت فترة حكم القرهمانليس (١٧١١ ـ ١٨٣٥) بكثرة الخصومات والمنازعات بين أفراد الاسرة قصد الوصول إلى السلطة والحكم . فالباشا يوسف الذي حكم من (١٧٩٦ ـ ١٣٨٢) وصل إلى كرسي الحكم بعد ان تمكن بالخديعة اقصاء أخيه محمد ، وأكثر من هذا ارتكب يوسف جريمة قتل أخيه حسن الوريث الأول لتولي مهام الحكم في حالة وفاة والدهم الذي لم يسلم هو الآخر من التعرض لبعض شرور يوسف المذكور .

خلف الباشا يوسف أربعة من الابناء الذكور كان اكبرهم البي محمد الذي أظهر تفوقاً ومقدرة عسكرية جعلته يكثر من الاعتزاز بنفسه ، حتى انه تجرأ في إحدى المناسبات وحاول طعن والده الذي كان يخشى اتخاذ أي اجراء تأديبي ضد ابنه لخوفه من العاقبة إذا هو أقدم على مثل هذا التصرف . وفي هذا ما اضطره إلى تعيينه حاكماً على بنغازي ودرنه حيث اظهر الابن اهتماماً سريعاً من أجل تقوية مركزه واعلان العصيان النهائي على والده بعد ان تمكن من ضم بعض القبائل الكبيرة إلى جانبه .

حمل تصرف الابن العدائي والده على سرعة اتخاذ الاجراءات التي تضمن إعادة المنطقة إلى ولائه ، وتاديب ابنه ، وبالفعل جهزت حملة عسكرية بقيادة الابن الثاني ليوسف باشا البي أحمد الذي عينه والده في منصب أخيه ومنحه لقب البيكاوية .

طلب البي أحمد من والده امكان توفير طبيب يصحبه في رحلته إلى برقه ، وقد كان يوسف باشا على علم بوجود الدكتور دي شيلا لدى زميله قنصل سردينيا الذي طلب منه الباشا امكان قبول الدكتور دي شيلا مرافقة ابنه

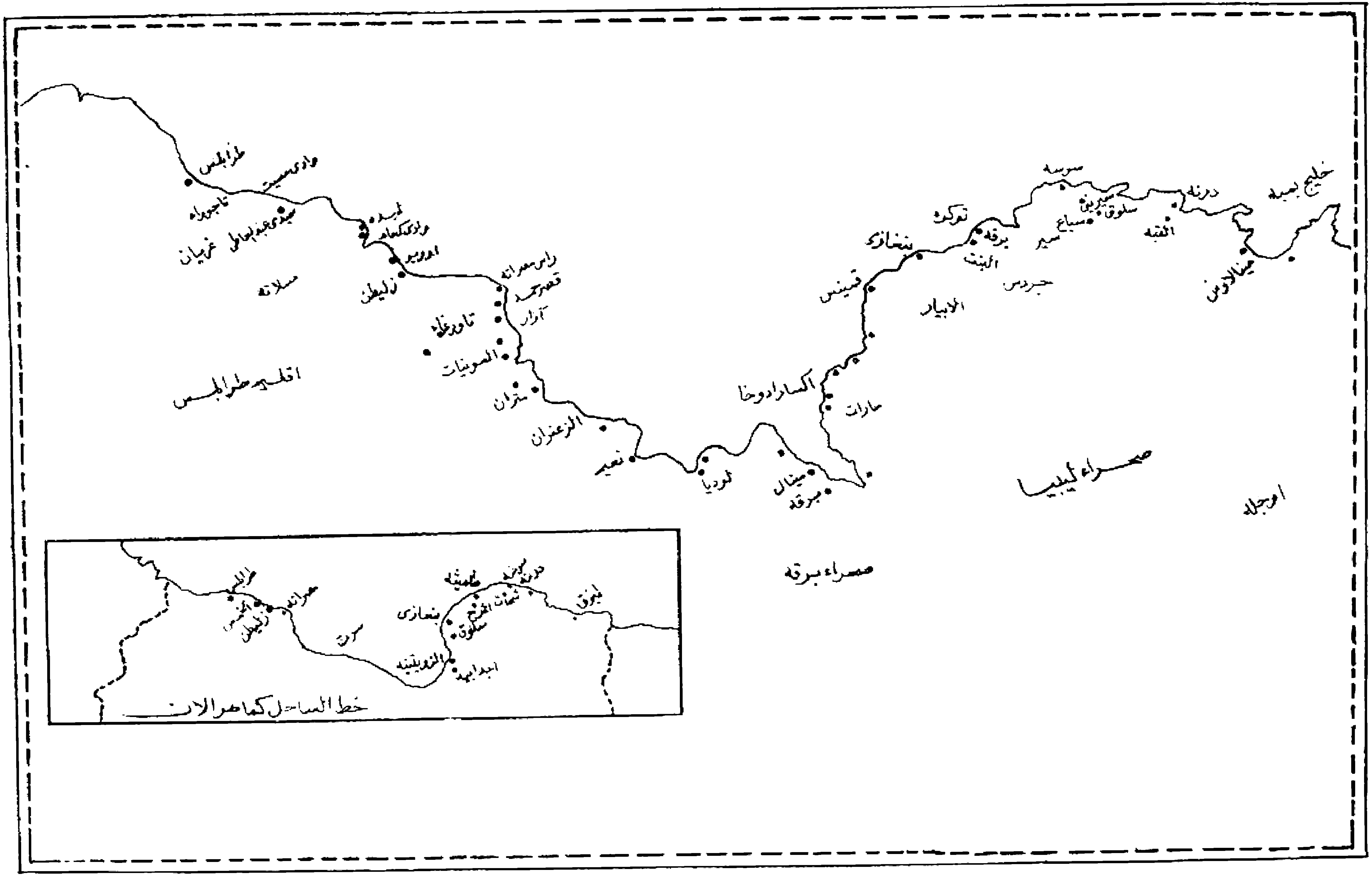
وقائد حملته العسكرية إلى برقه .

كانت روح المغامرة وحب الاستطلاع متوفرة لدى الدكتور ، وكان صديقه القنصل يعرف هذا جيداً مما جعله يظهر موافقته من قبل ان يستشير الدكتور في هـذا الخصوص .

خرجت الحملة العسكرية من طرابلس صبـاح ١١ فبراير ١٨١٧ ، ووصلت إلى الحدود المصرية ثم عادت عن طريق بنغازي واستغرقت قرابة ثمانية أشهر باستثناء فترة العودة ما بين بنغازي وطرابلس (انظر الخريطة) .

ارسل الدكتور دي شيلا خلال تلك المدة ثمانية عشر رسالة إلى استاذه وزميله الاستاذ فيفياني ، **Viviani** الذي يظهر انه كان استاذ علم النبات بإحدى المعاهـد في مدينـة جنوه الإيطالية .

كانت الرسائل باللغة الإيطالية بحكم جنسية صاحبها ، وفي سنة ١٨٢٢ تمكن انتوني افريرا **Anthony Aufrere** من نشر هذه الرسائل باللغة الانـكليزية في كتاب يحمل عنوان: قصص أو حكايات الحملة العسكرية التي قامت من طرابلس إلى الحدود



طرابلس
وادي سيت
تاجوراء
غريان
مسلاتة
اقليم طرابلس
لبدة
زليطن
تاورغاء
راس مصراتة
قصر أحمد
الصوينات
سرت
الزعفران
نعيم
اكسارادوخا
قمينس
بنغازي
تركث
برقة
الابيار
جردس
سوسة
سلوق
درنة
القبة
خليج بمبه
ميناء ادوس
صحراء ليبيا
صحراء برقة
اوجلة
مصراتة
بنغازي
طلميثة
سلوق
اجدابية
الزويتينة
سرت
خط الساحل كما هو الآن

المصرية الغربية .[1]

يشعر القارىء من قراءة هذه الرسائل بتحيز دي شيلا وكراهيته العميـــاء للعرب سواء البدو أو الحضر منهم ، وهو وان اظهر في اكثر من مناسبة ، بعض العبارات التي يفهم منها عدم رضاه عن تدهور الأحوال وخاصة في مجال الزراعة والامن ، إلا أنه يعود ويظهر سخطه في عدم أحقية أولئك القوم في الحياة أصلاً . لقد تجنبت عن قصد عدم اتباع مبدأ الترجمة الحرفية لكل ما جـــاء في رسائله لا تغاضى عن كل ما يورده من سباب وشتائم ، واكتفيت أن اشير إلى ذلك عند الضرورة ، كما انني لم اهتم كثيراً لما تعرض له من نواحي اجتماعية محضة وللتفصيلات الدقيقة لاسماء بعض النباتات وتفصيل الحديث عن الآثار المختلفة ، لان ما دفعني في الواقع لهذه الترجمة هو اعطاء صورة ولو بسيطة عن الكيفية التي كان يفكر بها الكثير من الغربيين والتي لا زالت ، مع الاسف ، موجودة حتى اليوم .

سيجد القـارىء في دي شيلا ، رغم عصبيته وتجاهله

1 - Narrative of an Expedition From Tripoli in Barbary To the Western Frontiers of Egypt in 1817 .

ذكر كلمة شكر واحدة عن قوم عاش بينهم وكانوا سبباً في تخليد اسمه ، رجلاً كثير الاطلاع إذ نراه يرجع إلى معظم المصادر القديمة وكان واعياً لاكثر ما جاء فيها . فهو رغم تخصصه كطبيب يفهم في الجغرافيا والتاريخ ، وله القدرة على وعي الكثير من الظاهرات الاجتماعية التي لم تكن له بها سابق خبرة .

ان ما كتبه حول وجوب استيلاء قوة أوربية تختص بإعادة تعمير برقه الشمالية ، يعيد إلى ذاكرتنا تنفيذالفكرة التي قامت إيطاليا بلاقدام عليها في بداية هذا القرن ، وفي اصرار دي شيلا على القيام بهذا الدور وان برره بحجة إعادة رخاء ورفاهية هذه المنطقة ، إلا انه لا يخفي رأيه في وجوب سيادة المستعمرين الجدد . لقد كره دي شيلا كل شيء إلا روابي برقه وعظم ماضيها ووجوب إعادة هذا الماضي لصالح قوة اوربية ، لم يذكرها صراحة، واكتفى بالإشارة إلى سروره عندما تقوم علاقات تجارية بين جهات برقه وبين الموانىء الإيطالية .

دواعي الحملة

لم يكد يمضي يوم واحد على وصولي إلى طرابلس إلاّ وفكرت ان ارسل إليكم بعض النباتات والمعادن والاشياء الاخرى التي لها علاقة بالتاريخ الطبيعي لادلل لك على أن البعد وطول المسافة لن يقتلا عندي حب العلم ، وتذكري لاستاذ أكن له أجمل الذكرى .

تقع طرابلس على ساحل البحر في منطقة لا يجد بهـا المهتم بدراسة التاريخ الطبيعي غير الرمال وبعض النباتات الطبيعية التي سرعان ما تختفي بسبب الجفاف وارتفاع درجة الحرارة . تسكن في ضواحي المدينة بعض القبائل البدوية الشرسة إذ ان سلب من يقع بين أيديهم من المسافرين

يعتبر بحق أقل الشرور التي قد يتعرض لها . وقد تحولت المدن القديمة ، التي كانت على درجة كبيرة من الرخـاء والتقدم ، إلى مناطق مهجورة ودمرت عن آخرها . فمجموع السكان لا يزيد عن ثلاثين ألفاً موزعـين بين طرابلس وتاجوراء وزليطن ومصراته وبنغازي ودرنه أي في منطقة يزيد طولها على تسعمائة ميل بين طرابلس وخليج بمبه .

يكاد اختراق المنطقة الصحراوية المطلة على خليج سرت من الأمور المستحيلة على النفر القليل من المسافرين لعدم توفر الأمن من جهة واحتمال التعرض للهلاك بسبب الجوع والعطش في حـالة النجاة من شرور البدو الذين يسكنون في هـذه المناطق . اما في المناطق البعيدة عن الساحل وحتى في بعض الجهات القريبة من طرابلس فلن يجد المسافر مكاناً يستريح فيه إلا داخل خيام البدو الذين رغم اشتهارهم بميزة الكرم ، إلا ان الكثير من المسافرين قد وجدوا فيهم عكس ما كان يدور بأذهانهم .

لو تأملت خريطة افريقيا التي نشرها أرو سميث Arrow Smith والتي بين عليها الدروب التي سلكها الرحالة في هذا الجزء من العالم فستلاحظ أن بعض أولئك الرحالة قد

اتخذوا طريق فزان في الوصول إلى طرابلس من مصر. كما أن بعض المغامرين قد سلكوا طريق الصحراء الكبرى ما بين طرابلس وتمبكتو أو عرجوا عبر الصحراء في الوصول إلى ضفاف النيل، وستلحظ أن أحداً لم يغامر في الدخول إلى اقليم البنتابولس: أرض قورينه وبرقـــه القديمتين، إذ يظهر أن طريق الوصول إلى هذه الجهات قـــد ترك من أجلي. ولهذا فأنا تواق لزيارة منطقة سرت، أرض الزوابع والعواصف، وآمل ان اوفر لـك مادة علمية كافية حتى تعطي العالم صورة عن الحياة النباتية في هذه المناطق، دون أي خوف من الوقوع في قبضة البدو أو أن أهلك بسبب قلة مستلزمات السفر من شرب وأكل إذ سيكون في حمايتي عشرة آلاف جندي، وسيوفر طابور طويل من الإبل الخوف من نقص المواد التموينية. وهنا لا أخالك أبداء اندهاشك البالغ من السبب وراء هـــذه الحملة العسكرية التي أرجو من جهتنا أن تحقق بعض النتائج الطيبة فيما يتعلق بخدمة العلم والادب.

لا يوجد من بين الوحوش التي عرفتهم اساطـــير افريقيا القديمة من هو أفظع ولا أقسى من الي محمد الابن

الاكبر لباشا طرابلس : انه رجل بارد وعنيد ، حقير في تفكيره ، متوحش وبربري المزاج ، يطلق العنان لنفسه دون تفكير ، وليست هناك حماقة إلا وارتكبها ، أهم هواياته مشاهدة خدمه وعبيده يموتون ألماً بعد أن يسقيهم جرعات الزرنيخ .

عين هذا الابن قائداً ، مع اعطائه كامل الصلاحيات ، على جيش كلف بتاديب قبيلة صغيرة رفضت دفع الاتاوة المقررة عليها وغارت على بعض جهات خليج سرت ، وقد رأى البي محمد في هذا التصرف ما يكفي للتنكيل وإبادة معظم القبيلة . زاد هذا الانتصار من كبرياء البي محمد حتى انه لم يعد يعامل والده بالاحترام اللازم بل وتجرأ في إحدى نزواته على رمي والده بخنجر كاد أن يصيبه لولا ان نبهت إحدى الجواري سيدها الباشا للأمر . كان المفروض أن ينال هذا الابن العاق الجزاء الرادع وينزع منه ما كان يتمتع به من نفوذ حتى لا يتمادى في تصرفاته الحمقاء ، إلا ان والده بدل هذا عينه حاكماً على بنغازي ودرنه حيث تعيش قبيلة الجوازي التي لا تكن الولاء والاحترام لباشا طرابلس ، والتي استطاع الابن ضمها إلى جانبه والتمرد على والده بالتالي .

انتشرت الفوضى رغم الاضطراب بمجرد وصول البي محمد إلى بنغازي ، الذي أعلن بعد فترة وجيزة راية العصيان النهائي على والده الذي رأى من جانبه وجوب العمل على تجهيز حملة عسكرية بقيادة ابنه الثاني الذي عينه مكان أخيه والذي طلب إليه الانتقام منه مهما كلف ذلك من مشاق .

كان البي أحمد على خلاف الكثير من المسلمين ، على جانب كبير من الحذر ، مما جعله يفضل وجود طبيب يصاحبه في هذه الحملة العسكرية ، ولحسن الحظ كان الباشا يعرف عن مهنتي وطلبه بالتالي امكان مرافقتي لابنه . ولما كان صديقي قنصل سردينيا يعرف مقدماً رغبتي في الوصول إلى تلك المناطق فقد سره أن يوافق دون تحفظ . ولعلك ترغب الآن في معرفة الطريقة التي يجمع بها هؤلاء القوم لجيش ما ، وعن طبيعة امتثال الأوامر بين صفوف الجيش ، وكيف تتم عملية توفير متطلباته من عتاد ومؤونة في منطقة تكاد تكون خالية من السكان وليس بها ما يوفر ولو القليل من مستلزمات مثل هذا الجيش .

رأى الباشا ان لابد من استعمال القوة ضد ابنه حاكم

بنغازي ودرنه فاصدر أوامره لمشائخ القبائل لتجهيز قوة يتناسب عددها مع أفراد كل قبيلة ، وعلى أن يحضر جميع المشائخ إلى طرابلس لاستلام الخيام والأعلام الخاصة بكل منهم ، مع ملاحظة ان المرابطية والاشراف هم وحدهم الذين لهم شرف حمل الأعلام الخضراء على اعتبار أن الأولين لهم حظوة لقداستهم وطهرهم ، ولانتماء الأشراف إلى نسب محمد ، أما باقي الاعلام الاخرى فكلها ذات لون واحد .

قبل خمسة أيام من مغادرتنا افيم احتفال لم يزد عن كونه اعلان حالة الحرب ضد الأبن الخارج عن طاعة والده ، وفي نفس الوقت كان الاعداد لمسيرة الحملة يسير حثيثاً ،والبي أحمد مشغول بزيارة جميع المرابطية في المدينة طالباً منهم الصلاة والدعوة لتوفيقه .

بدء الرحلة

تركنا طرابلس صبيحة يوم ١١ فبراير ١٨١٧ ، وقد رافقنا الباشا إلى منطقة لا تبعد كثيراً عن طرابلس حيث وجدنا معسكراً أقامه بعض الجنود الذين خرجوا لملاقاتنا والانضمام إلينا لأن عدد أفراد الجيش حين مغادرتنا طرابلس لم يزد عن ٥٠٠ جندي بما فيهم المساعدين العسكريين لقائد الحملة ، وبعض الارقاء ، والحرس . وكان معروفاً للجميع أن الجيش لن يكتمل عدده قبل عبورنا منطقة سرت حيث تعيش بعض القبائل التي ستعمل على تزويد عدد أفراد هذا الجيش . كانت النسوة يزغردن طوال الطريق ، وقد اخبرت انهن بقيامهن بهذا العمل إنما يتفاءلن بعودة ازواجهن واقربائهن سالمين . توقفت القافلة

بعد مسيرة ساعتين لقضاء الليلة بمعسكر قبل تاجوراء مباشرة .

ان أي اوربي سيدرك ومنذ اللحظة الأولى مدى الفوضى والاضطراب ، فلم يكن هناك أي نظام يحكم تحرك الجيش الذي خلا من التناسق في اسلحته وملابسه : فالجندي من هؤلاء يحمل بندقية قديمة ومسدسين أكثر قدماً ، ويلبس الجرد الذي يحد من الحركة ، ونعلاً من جلود الابل بينما تتدلى من وسطه ثلاثة أكياس صغيرة يحمل فيها مسحوق البارود وما يلزم لحشو البندقية . والسؤال ما الذي يمكن أن ينتظر من جندي عليه أن يوفر سلاحه وملابسه ، والذي يخوله انخراطه في جيش الباشا أن يعيش بالمجان مع اعطائه كامل الحقوق في امتلاك ما يقع تحت حوزته ؟!!

تشترك مجموعة من الجند ، في الحالات التي يعبر فيها مثل هذا الجيش مناطق صحراوية واسعة ، في شراء جمل لحمل متاعهم ، الذي يتكون من دقيق الشعير لعمل الزميته ، والشعير لاطعام جيادهم ، وحصيرة من ورق النخيل للجلوس والنوم عليها ، وقربة لحمل الماء ، والقصعة

التي لها عدة فوائد منها : تجهيز الزميته ، وغسل الملابس وسقي الجياد والابل .

حضر إلى المعسكر في مساء هذا اليوم بعض سكان الجهات الغربية وقدموا لنا البازين الوجبة الشعبية والمعروفة بين سكان المنطقة ، ولعلك لا تعلم ان كثرة استعمال الزميته والبازين يولد بالتأكيد ظاهرة الامساك لأن مثل هذه الوجبات تجهد المعدة وتسبب مرض المثانة في الكثير من الحالات .

في أول ليلة اقضيها في معسكر هؤلاء القوم ، كان كل شيء جديداً بالنسبة لي مما يضطرني لانقل إليك وصفاً ،ولو موجزاً ، لتلك المناظر التي ستتكرر كل يوم . تنصب الخيام في شكل شبه دائرة مع مراعاة أن يكون مدخل المخيم في مواجهة الطريق الذي سيسلكه الركب في اليوم التالي . تقام خيمة البي والطبيب والخازندار (مسؤول المعسكر)وسط المخيم،يلي ذلك خيام الحرس وتنصب خيام الجند لتكون شبه الدائرة ، وفي مدخل المعسكر تربط جياد البي وتنصب قريباً منهاثمانية مدافع برنزية تجرها عربة مهلهلة ، كما ترفع في مكان غير بعيد ، رايتان كبيرتان

تحملان شعار الاسلام يقوم بحراستهما اثنـان من الاشراف.
إذا تمكن أحـد المغامرين من قلب حكومة أحد الباشوات ، واستولى على السلطة فان الخليفة يسرع في ارسال فرمان لتعيينه محل سلفه مقابل تلقي الاخير أوامره من الخليفة . والجدير بالذكر أن أي رجل يتمكن من لمس هذا الفرمان ، وبغض النظر عن الجريمة التي ارتكبهـــا ، فانه يصبح في مأمن من العقاب .

يقوم نظام المراقبة الليلية داخل المعسكر على طريقة غيرمقبولة ومنظمة إذ بمجرد اطلاق أحد البنادق يقوم أحد الضباط (شاويش) بنداء عال يقول فيه احترس ، وتردد الخيمـة القريبة منه هـــذا النداء إلى أن تنتهي الدورة ثم يعود الشاويش لترديد هذا النداء كلمـــا انتهت الدورة ويستمر في ذلك حتى الصباح .

وفر قرب تاجوراء من العاصمة عامل الحماية والطمأنينة مما جعل السكان يحولونها إلى مسرح للحرف الريفيـــة على الرغم من وجود شريط من الكثبان الرملية التي تفصل هذه المنطقة الضيقة عن منطقة جبال غريان التي هي أول شيء يشاهـــده القادم بحراً ، والتي تبعد مسيرة يوم كامل عن

العاصمة طرابلس ، وترتفع إلى حوالي ٥٠٠ مترفوق سطح البحر . وهذه الجبال على الرغم من وعورتها وامتدادها من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي تسقط بها كميات وافرة من الأمطار وتشتهر بانتاج الكميات الهائلة من الزعفران وغيره من النباتات التي تستخرج منها العقاقير الطبية .

توجد قريباً من طرابلس وفي منطقة تاجوراء أيضاً الكثير من اشجار النخيل التي لا يسر منظرها نظر الرجل الاوربي وأن أعطت توافقا مع المظهر التضاريسي المقفر ، على الرغم من ان تمورها تكون جزءاً أساسياً من غذاء السكان لأن زراعتها لا تحتاج إلى مجهود وعناية خاصة . والبلح الطازج يكون جزءاً هاماً من فائدة الغني والفقير لأن الحصول عليه لا يحتاج إلى مشقة ، وفي هذا ما يوافق رغبتهم في حب الكسل على الرغم من ان نوعية البلح والتمور في هذه الجهات ليست مثل النوع الجيد الذي تشتهر به تونس او اقليم فزان ولو ان تمور الاخيرة لا تعرف في اوربا .

يحصل السكان بقطع رأس النخلة على نوع من الخمور يعرف بلاَّقبى ، واللاَّقبى إذا لم يتخمر مشروب شهي المذاق ، أما

في حالة تخمره فيمثل نوعاً من المشروبات القوية التي يشتد طلب السكان عليها رغم تحريم القرآن لتناولها . وبالمناسبة فان معرفة العالم لهذا النوع من الخمور معرفة قديمة ، فقد ذكرها على سبيل المثال المؤرخ اليوناني هيرودوتس الذي أشار أنه من بين الهدايا التي أرسلها قمبيز إلى أهالي أثيوبيا، مركبا محملاً بنبيذ مصنوع من شجر النخيل الذي يحتاج لمرور ثلاث سنوات قبل أن يعطي محصولاً جديداً قيل انه يتميز بانه أفضل نوعاً والذ مذاقاً من المحصول قبل استخراج اللاقبى . كما توجد في منطقة طرابلس أيضاً الكثير من المزارع التي يزرع بها بجانب النخيل الكثير من الاشجار الاخرى مثل الليمون والبرتقال ، وفي العادة تحاط هذه المزارع بسياج من التين الشوكي . وباستثناء البرتقال فان جميع أنواع الفواكه، بجانب قلتها ، أقل نوعية من مثيلاتها في بلادنا . كما توجد أيضاً العديد من أشجار الزيتون التي تتميز بان أوراقها أغمق من تلك التي نعرفها ، ورغم الطريقة البدائية التي تتبع في عصر محصول الزيتون ، باستعمال قطع من أعمدة حجر الجرانيت التي كانت مستعملة في بناء المدن القديمة كلبدة وصبراته ، إلا ان

الزيت من النوع الجيد ، والواقع ان جميع السكان لا يقدرون أي شيء مما يوجد حواليهم من آثار كثيرة غير مثل هذه الأعمدة .

يقطن تاجوراء قرابة ثلاثة آلاف نسمة معظمهم من اليهود والمغاربة ، ويسكنون منازل متباعدة ويمارسون حرفة الزراعة مع بعض الصناعات المحدودة كصناعةالجرود والحصر .

توجه البي وصحبه لزيارة ضريح أحد المرابطية ولعله من المفيد أن اعطيك وصفاً موجزاً عن المرابطية .ليتم انتاؤك إلى هذه الطبقة المفضلة . يستحسن ألا تتزوج باكثر من واحدة ، ألا تتعاطى الخمور بالمرة وان تعرف كيف تقرأ القرآن . في بلد كهذه حيث يعجز الناس عن ضبط انفسهم وينتشر ادمان الخمر وحيث الجهل المطبق فانه من اليسير على مثل هذه الطبقة كسب صيت وشهرة وخاصة إذا كانت لهم المقدرة على تغفيل الدهاء . والمرابطية الأقل حنكة هم الذين يقومون بهز رووسهم وأيديهم لساعات طويلة حتى ان بعضهم قد يسقط مغشياً عليه ، ويفقد بعضهم الآخر احساسه كاملاً . ولبعض

هؤلاء شهرة خاصة لانهم يدعون احـــداث المعجزات في الأماكن العامـــة . تنحدر هذه الحرفة من الأب إلى الابن وهي ، على كل حال ، حرفة مربحـــة ولعل هذا ما يفسر انتشار وكثرة هذه الطبقة ، وعند وفاة المرابط ، وخاصة إذا كانت له شهرة ، تتعاون القبائل القريبة في بناء ضريح له .

يقوم البي بزيارة أضرحـــة المرابطية دون أن يظهر عليه أي حرج ولكن على خلاف عادة القوم إذ يذهب دائماً دون أن ياخذ معه أي شيء وعلى أن يعود بهدية في كل مرة . يحضر مجلس البي بعض المرابطيـة باستمرار حيث لا ينفكون عن ترديد الدعوة له بالنصر ، أما داخل المعسكر فيقومون بعملية الاتجار في بيع الاحجبة التي هي قطـــع صغيرة من الورق مكتوب عليهـــا بعض الكلمات التي لا يستطيع قراءتها غير الذي كتبها ، والتي يختلف ثمنها حسب الغرض منها : إذ يحمي بعضها حـــامله من الرمي بالخنجر ، ويحمي ثان الإصابـة من البندقية ويحمي آخـر حتى من قنابل المدافع . ولهذا فليس هناك جندي واحد إلا ويحمل واحداً أو أكثر منها بل انها تعلق على رقـاب الخيل والابل أيضاً . تسمع كل يوم أخبـــار شفاء المرضى

عن طريق علاج المرابطية وخـــاصة إذا كان بالإمكان إحضار المرابط نفسه إلى المريض حيث يقوم الأول ببعض القراءات وكتابـة احجبة تذاب في ماء يسقى إلى المريض، وقـد اشيـع من المدة القريبة الماضية إن إحدى زوجـات الباشا قد توفيت بسبب الكمية الكبيرة التي اسقيت لها من مزيج الماء والجير . ورغم هذا فان للمرابطية حظوة لدى الباشا لأنهم لا يقبلون بدية عند حضورهم مجلسه بـــل يكتفون بتقبيل كتفه وهو ما لا يجوز إلا لذوي الحظوة والقربى .

مغادرة تاجوراء

تحركت القافلة في تمام الساعة السادسة والنصف من صباح ١٢ فبراير ، وبعد مسيرة سبع ساعات ، بحذاء الساحل ، وصلنا إلى وادي مسيت الذي ينبع من منطقة غريان . وفي المساء وبعد اجتيازنا لمجرى الوادي بنصف ساعة اقيم معسكر المبيت ، وحضرت مجموعة من البدو المسلحين ، يتقدمهم بعض مشائخهم وأحد المرابطية ، رافعين ولاءهم للبي وتقديم أنفسهم جنداً له .

تحد حافة جبل غريان هذه المنطقة السهلية من الجنوب ، وتقطعها بعض مجاري الأودية الغنية المرعى ويسكنها عدد لابأس به من السكان . يظهر إهمال الحكومة واضحاً في مثل هذه المناطق الخصبة التي يمكن أن تتحول

إلى أرض منتجة إذا ما عمل على التصرف في كميات المياه من ما هناك من أودية . وهنا لابد المسافر من المرور على تلك الآبار المبعثرة التي لا تصلح مياهها للشرب في معظم الأحيان . وصلنا بعد أربع ساعات إلى قلعة قديمة تحيط بها أشجار العنب التي لو أمكن تحويل انتاجها إلى نبيذ فان شربه ، في نظري ، سيغري كل من يشاهده ، وللحق فان اهمال اشجار العنب هذه ليس بسبب ما جاء في القرآن من تحريم الخمر بقدر ما هو راجع إلى كسل وجهل السكان أنفسهم . كان الوقت ظهراً وبدأت درجة الحرارة في الارتفاع الملحوظ وهو ما اضطرنا إلى أن نعسكر في مكان يعرف بسيدي عبد العاطي الكائن فوق إحدى التلال القريبة من البحر ، وقد انتهز الباي هذه الفرصة ليقوم بتسلية صقره المفضل ولينتظر تزويده بما يحتاجه الجيش من مؤونة وجنود . انني مندهش لمدى نشاط وفرحة هؤلاء القوم من الرحل الذين لا يعرفون أية قوانين ولا يخضعون بحال للمقاييس الجبرية ومع ذلك نراهم يحضرون عند أول إشارة للانضمام إلى جيش الباي الذي ما عليه إلا أن يظهر كامل امتنانه وشكره على ولائهم له .

كان البرد شديداً أثناء الليل مما سبب لي الكثير من المتاعب إذ كانت درجة الحرارة في الخامسة صباحاً أربع درجات فوق الصفر بينما كانت ستة عشر درجة مئوية في الظل ظهر اليوم السابق . بدأنا التحرك في الساعة السابعة والنصف وكان السير صعب للغاية بحكم طبيعة الأرض المضبية وما يتخللها من أودية كثيرة يوجد ببعضها بعض المناطق المزروعة زيتوناً ونخيلاً وبعض أشجار العنب المهملة ، كما توجد العديد من القلاع الاثرية والآبار القديمة .

الوصول الى لبدة

بتغيير خط سيرنا نحو الشمال وصلنا إلى لبـدة المدينة الاثرية الشهيرة حيث اقمنا معسكرنا بحذاء الساحـل وعلى مسافة قصيرة منها . تقع لبدة على ساحل البحر في المنطقة التي تنتهي عندهـــا الحافة الشمالية لجبال مسلاته مكونة بذلك منطقة سهلية واسعة توجد بهـــا الكثير من أشجار النخيل والزيتون . تنتهي جبال مسلاتـــه غربي لبدة مباشرة ، وتقوم على هذه الجبال بعض القلاع الحربيـــة القديمة ، أمـــا إلى الجنوب من لبدة ، وبعد انتهاء المنطقة السهلية توجد مجموعة من الهضاب المحدودة الارتفاع والتي تتميز بفقر حياتها النباتية إذ ليس بها أي زراعة على الرغم

من ان مجهوداً بسيطاً يمكن أن يحولها إلى مزارع عنب وزيتون غنية .

ليس هناك من بقايا لبدة إلا بعض الآثار المبعثرة هنا وهناك والتي من أهمها مخلفات بعض المباني العامة وبعض الابراج المحطمة وأكواماً من الأعمدة الجرانيتية الحمراء والرخام الممتاز .

يعتقد الكثيرون أن لبدة قد اسست في العهود الغابرة من قبل الفينيقيين ثم تحولت بعدهم إلى مستعمرة رومانية. وقد كان من العسير علي التعرف على لبدة الفينيقية عكس الحال مع المدينة الرومانية التي يمكن الاستدلال عليها بكل يسر لا بسبب ما هناك من رسومات وزخرفات، وإنما بسبب الطابع المعماري الروماني المميز ، لاعتقادي ان الاباطرة الرومان ، نظراً لما كانوا يلقونه من مساعدة وتكريم من المدينة ، كانوا مستعدين دائماً لرد الجميل بإقامة المباني الفخمة مما يحفظ بالتالي الكثير من المدينة القديمة . وللعلم فقد كان تحديد موقع لبدة على هذا الجزء من الساحل الافريقي موضع اختلاف الكثير من المؤرخين الذين لم يتفقوا أيضاً على تحديد موضع كل من

نيابلس Neapolis وأبروتنس Abrotanus. وأنـــا لا يخالجني شك في ان مدينـــة طرابلس Tripoli كانت تعني لدى الجغرافيين القدماء مكان بعض الآثار التي توجد إلى الغرب من مدينة طرابلس الحاليـــة وان كان سبب تدمير ذلك المكان لا يعرف سره حتى الآن . وأنا شخصياً أمين للأخذ بهذا الرأي بسبب تلك القراءة الصحيحة التي أوردهـــا الجغرافي بطليموس Neapolis أو طرابلس الجديدة ، وفي هذا خلاف لمـا يورده سيلارس Cellarius الذي يخلط بين اسمي طرابلس ولبدة .(١)

---

(١) سالاّست : مـــؤرخ روماني عاش في القرن الاول الميلادي واشتهر بكتاباته عن مؤامرة كاتلين وحروب قرطاجنة التي عين حاكماً عليها حين استولى الرومان عليها لأول مرة .

بليني : ولد في سهل لمبـارديا ، واشتهر بكتابه المعروف بالتاريخ الطبيعي المكون من سبعة وثلاثين جزءاً ، هذا بلاضافة إلى ما ضاع من مؤلفاته العديدة في فن العلوم العسكرية واللغة والتاريخ .

سيلارس : لم اتمكن ان اعرف عنه شيء وان كان المرجحانه مؤرخ روماني هو الآخر .

تحدث بطليموس واتفق معه المؤرخ بليني على طرابلس الجديدة ولبدة على اعتبار انهما مدينتان مختلفتان ، والواقع أن ما تركته جغرافية بطليموس حول هـــذا الجزء من القارة الافريقية يستحق عليه منا جزيل الثناء . وعلى أيـة حال فان لبدة ، حتى مع الافتراض أنها سميت في فترة من الفترات Neapolis كما يقول سيلارس ، إلا إن سلاًست Sallust يؤكد ، وتؤكد أيضاً ما خلفه مؤسسوها من نقود معدنية ، أنها كانت تعرف باسم لبـدة Leptis ، وانهـــا استمرت تعرف هكذا بخلاف مـــا ذكره بعض الجغرافيين القدماء ، هذا بلاضافة إلى انني لست متفقـــاً مع ما ذكره استرابو الذي تكلم من أبروتنس Abrotanus (صبراته) التي يحدد موقعها غربي طرابلس ثم يذكر أن لبدة تقع قريباً منها أي غربي طرابلس .

قضى الباي باقي اليوم في تفقد أحوال الجيش وكان لا يتوانى عن اظهار جام غضبه لمشائخ القبائل التي لم توفر العدد المطلوب من الجند والتي عليها في مثل هذه الحالات التعرض لمـــا يامر به من عقوبة أخفها العبث بخيامها . كنت في المساء في عيادة صهر الباي الذي كان يشكو من

صداع شديد والذي مع ذلك لم يقتنع بالسماح لي بمعالجته ، بحكم تعوده على علاج المرابطية وعمل الأحجبة ، إلا بعد ان اكدت له انني سأشفيه تماماً . لقد بدأت أكسب ثقة البعض بالتدريج وهو ما زاد بالطبع من كره المرابطية لي حيث انهم احتجوا لدى البي حيث لاموا عليه قبوله وضع حياته بين يدي كلب مسيحي .

في الطريق الى مصراته

تحركنا في تمام الساعة السادسة من صباح ١٥ فبراير ، وكانت الرياح غربية خفيفة اسقطت بعض المطر ، وفي الطريق قابلنا ثلاثة من الزنوج قبلوا يدي البي ودار بينهم حديث عرفت منه اننا بالقرب من ضريح أحد المرابطية . أصدر البي أمر التوقف ليتمكن من زيارة الضريح ولاعطاء فرصة للقبائل القريبة تتمكن فيها من تزويدنا بما نحتاج اليه من مؤونة. وفي هذا الاثناء لفت زيي الاوربي نظر أحد المرابطية مما حمله على الاقتراب مني والتفوه ببعض الكلمات عرفت بعد ان ترجمت لي انه كان يتمنى أن يأكلني حياً وللحقيقة فقد لامه البي على هذا التصرف المشين .

وصلنا إلى وادي عين كعام بعد مسيرة ثلاثة ساعات من لبدة ، وكان المجرى جافاً وان ظهرت هناك بعض البرك على جانبيه . ان هذا الوادي ، الذي ينحـــدر من التلال القريبة ،لابد وان يكون وادي سينفس Ciniphvs المعروف للجغرافيين القدمـــاء إذ اتفق كل من استرابو وبطليموس في تحديد مكانه إلى الغرب من رأس سيفلس Cephalus الذي يعرف حالياً برأس مصراته ، وان كان سيلارس قد اخطأ بوضعه إلى الشرق من الرأس المذكور. اقد اصاب استرابو ايضاً حين ذكر إن الفينيقيين أقاموا جسراً لعبوره إذ لا تزال بالفعل أعمدة ذلك الجسر ظاهرة للعيان ، وقد جانبه التوفيق للمرة الثانية حين قال بفيضان هذا الوادي وهو ما يزال يحـــدث إلى الآن زمن هطول الأمطار الغزيرة . وفي رأيي أن سكان لبدة كانوا يحصلون على بعض حاجتهم من مياهه لأن بقايا السواقي المائية بينه وبين لبدة لا زالت موجودة وفي أكثر من مكان واحد . فاذا صح هذا ، وهو أمر كثير الاحتمال ، فان وادي عين كعام والهضاب المحيطة به من الجنوب ، لا بد وان تكون ما اطلق عليه بطليموس منطقة الحسناوات وهو ماذكره

هيرودوت قبل ذلك بوقت طويل .

يوجد بين وادي عين كعام ورأس مصراتـــه سهل عريض وفي غاية الخصوبة ويظهر أن هذا السهل ربما كان أكثر جهات ليبيا عمراناً بالسكان لأن هيرودوت يقارن بينه وبين السهول المحيطة بمدينة بابل التي كانت أخصب الجهات المعروفة آنذاك . توجد في هـــذا النطاق السهلي ثلاثة مناطق عمرانية منها قرية زليطن التي تسكنها مجموعة من اليهود واخرى أكبر عدداً من المرابطية تسيطر على المجموعة الأولى سيطرة مطلقة .

اختفت العيون المائية التي كانت موجودة ولها شهرة في القديم ، وتراكمت الرمـــال في معظم اجزاء السهل ، واقتصرت ميـــاه الشرب على ما هناك من برك آسنة ، وتحولت الكثير من الآثار القديمة إلى مقابر واضرحـــة للمرابطية . واصلنا عبورنا لهذا السهل الجميل الذي كان مزدهراً والذي تحول الآن إلى منطقة تكاد تكون مهجورة الا من بعض المراكز العمرانيـــة الصغيرة واضرحـــة المرابطية التي كان البي يقوم بزيارة بعضها بين آن وآخر رغم انه لم يكن ليوقف مسيرة الحملة الاّ في بعض الجهات

الماهولة منتظراً بذلك تزويده بالمؤن ، فإذا حصل وخاب ظنه أمر بحرق جميع الخيم والأكواخ والاستيلاء على ما هناك من حيوانات بعد معاقبة أصحابها .

حضر رسولان من بنغازي وأخبرا البي أن أخاه ما ان عرف بخبر الحملة التي يقودها حتى رحل واستقر على بعد مسيرة يوم كامل شرقي المدينة . ادخل هذا الخبر بالغ السرور على نفس البي وظهرت في المعسكر بشائر الفرح وكثر الحديث عن جبن البي المنسحب .

توجد قبل مصراته بحوالي ثماني ساعات ، وبين الكثبان الرملية الساحلية ، مدينة أورير Orir القديمة التي لم يبق منها سوى بعض اجزاء الجدران وبعض الارصفة المزينة بالفسيفساء مما يدل انها كانت مدينة منسقة . ويبدو لي أن موقع بقايا آثار هذه المدينة يتفق تماماً مع ما ذكره بطليموس عن سيسترن Cisterne التي يقول عنها انها تقع بين رأس مصراته وبين برك أو مستنقعات وادي عين كعام . وصلنا الى قرية زاوية المحجوب الواقعة وسط مجموعة من المزارع الخضراء التي كان لجمال موقعها وكثرة آبارها بلاضافة الى قربنا من مصراته ما جعل البي

يفضل قضاء الليلة في هذه القرية لا ليتم تزويدنا بما نحن في حاجة إليه فقط ، وإنما ليكون دخول البي وجنده إلى مصراته مهاباً في الصباح . حضر سيدي محمد الآغا حاكم مصراته ، ليقدم ولاءه للبي وبصحبته فرقة كبيرة من الزنوج والمرابطية لتدعيم الجيش ، وفي الصباح كانت مسيرتنا بالقرب من البحر وفي منطقة رملية جرداء ، الا اننا ما كدنا نشرف على مصراته حتى وجدنا أنفسنا في منطقة سهلية فسيحة تتخللها حقول القمح وغابات من من اشجار الزيتون والنخيل . أصبحت مجموعة الهضاب والمرتفعات التي كانت تحد المنطقة السهلية قبل مصراته يتضاءل حجمها وارتفاعها حتى انها كادت تختفي كلية . وهنا أرى لزاماً على ان اصحح خطأ ورد في خريطة أروسميث الذي اعتبر جبال غريان تمتد بلا انقطاع الى رأس مصراته ، والواقع أن هذه الجبال تنتهي عند لبدة وليس مصراته كما ذكر أروسميث .

مدينة مصراته

تقع مصراته على بعد قليل من البحر حيث النهـــاية الغربية لخليج سرت ، ومصراته لا تتكون كما هو الحـال مع المدن الاوربية من مجموعات متلاصقة من المنازل لأن بيوتها صغيرة ومتباعدة وتفصلها الحدائق عن بعضهـــا ، وبناؤها من النوع الردىء في الغالب لأنها تبنى أساساً من الحجارة المخلوطة بالطين والوحل ، اما الاسقف فعبارة عن مجموعةمن جريدالنخيل المغطى بالوحل والرمل ولهذا فكثيراً ما تتمكن الأمطار من اذابة هذه المواد وتتعرض المنازل للسقوط . أمراض العيون والدفتيريا منتشرة بكثرة بين السكان بسبب ارتفاع نسبة الرطوبة وجهل السكان التام لاستعمال مادة الحجر الجيري كمادة للبناء رغم انهـــم

يعيشون فوق تربة جيرية ،وتتوفر قريباً منهم كميات هائلة من الاحجار الصلبة في المدن الاثرية والتي يسوقهم جهلهم الى تفتيتها قبل استعمالها .

يعتمد سكان المدينة في حياتهم على الزراعة في المقام الأول بلاضافة الى صناعة الجرود والبسط التي يدخـل في صنعهـا النوع الممتـاز من الاصواف المحلية . كما ان البعض يقومون بتجارة القوافل ما بين مصراته وتمبكتو بحيث تتمثل أهم السلع المرسلة جنوباً من المصنوعات القطنيـة والبسط ، أما ما ينقل شمالاً فيتمثل في الذهب والعـاج والرقيق ، وفي العـادة لا يصل تجار مصراته الى المناطق الداخلية من القاره الافريقية فتلك مهمة يتولاها تجـار القوافل الزنوج لأنهم وحدهم هم الذين يستطيعون القيام بهذه العملية لسببين : أولاً استحالة السفر الطويل وسط الصحراء المقفرة ، والثاني لأن الزنوج سيكونون في مأمن داخل مناطق سكناهم الاصلية . وهنا لا يجب أن ننسى ان اختراق ارض الجارامنت ، فزان الحالية ، كان مألوفاً لدى الأقدمين الذين كثيراً ما كانوا يقومون بجلب الأحجار الثمينة الى اوربا ، ومـع الاسف فان جهل الحكومـة

وتصرفات حاكم مصراته بالذات قد اوشكت أن تنهي الاتصال مع الداخل ، هذا الاتصال الذي يمكن أن يزيد من ثراء المدينة لأن الوصول الى الجنوب ومن مصراته بالذات يمثل أقصر تلك الطرق .

يحكم منطقة مصراته الآغا الذي يملك سلطات عسكرية واسعة تمكنه من جمع ثماني مائة فارس ومثلهم من المشاة ، ومما تجدر الإشارة إليه أن توفير مثل هذه القوة العسكرية لا يمكننا من احتساب عدد سكان المنطقة الفعليين لان توفير مثل هذه القوة لا يخضع لاي نظام سوى رغبة الآغا نفسه . بجانب هذه السلطة العسكرية يعتبر الآغا ممثل الباشا في حكم المنطقة لانه يجمع في يديه السلطتين التشريعية والقضائية رغم ان اطلاق لفظالسلطة على ما يمثله الآغا لا يعبر تعبيراً دقيقاً عن الواقع لان مثل هذه السلطة لا تقوم على العدل والانصاف ولا على مراعاة العادات والرأي العام .

نزل البي ضيفاً في بيت الآغا الذي لا يتميز عن باقي البيوت الاخرى سوى بحجمه ، وقد مكثنا يومين في المدينة بسبب العواصف الشديدة والامطار التي اطاحت

وهدمت مخياتنا ، حتى انني فضلت قضاء الليلة الثانية في احدى الحجرات ببيت الآغا لانني لم اتمكن من النوم لحظة واحدة في الليلة السابقة . حضر البي في صباح ٨ فبراير احتفالاً ضم سكان المدينة والقرى المجاورة ، وكان من العادة أن يقف الآغا قريباً من البي وان تقف الحاشية على جانبيه غير انه رأى في هذه المناسبة أن أقف الى يمينه ليظهر للملأ وجود اوربي في خدمته . كانت حظوتي هذه سبباً في تحسين معاملتي وخاصة فيما يتعلق باعداد مائدة طعامي اذ لم تكن علاقتي مع مسؤول المؤونة كما يجب : لقد كنت في السابق اخاف الجوع أما الآن فقد أصبحت أخشى التخمة بعد ان حضر هذا المسؤول الى خيمتي طالباً مني العفو عن سابق سوء تصرفه .

الرحيل عن مصراته

تركنا مصراته لمجرد تحسن الأحوال الجوية ، وكان الآغا في المؤخرة مع من كان برفقته من فرسان ومشاة وراكبي ابل والغريب في الأمر أن قيادة تلك القوة بقيت في يديه طوال الرحلة بل وأكثر من هذا استطاع أن يظهر قوة نفوذه داخل مجلس البي . بعد قليل من السير وصلنا رأس مصراته ، الذي يسميه بطليموس تريرو Triero في المنطقة التي تعرف بقصر أحمد وهي عبارة عن مجموعة من التلال الصخرية الممتدة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي مكونة بذلك خليجاً صغيراً يمكن أن يوفر حماية السفن الصغيرة اثناء الظروف الجوية القاسية ، والذي تسترشد السفن في الوصول إليه بذلك الضريح الذي يقوم

في نهاية الرأس .[1] يمكن للناظر من هـذه البقعة أن يرى جزءاً كبيرا من خليج سرت الغربي والمناطق الصحراوية المجاورة ، وبصراحة فقد خفق قلبي كثيراً حين تذكرت انني قادم على اختراق هذه الجهات الموحشة . ولعلك تذكر ان جميع البحارة كانت تملأهم الرهبة والرعب حين يعبرون هذا الخليج الذي اشتهر بصعوبة الملاحـة فيه منذ القديم ، ولعل في كثرة بقايا السفن المحطمة ما يلقي المزيـــد من الإيضاح على ما كانت تشهده هذه المنطقة من حـــوادث مزعجة . فقد ذكر استرابو مثلاً ان جميع الملاحين كانوا يتحاشون دخول هذا الخليج خوفاً من الأسر أو الهـلاك .

يـذكر سيلارس أن اسم سرت مأخوذ من الكلمة اليونانية بمعنى يدخل أو يتوغل متناسياً أن كلمة سرت تعني الصحراء في اللغة العربية ، وانها لا زالت تستعمل في هذا المعنى على طول سواحل هذا الخليج التي كانت محـــل سكنى أو اقـــامة قبيلة أولاد علي الـــتي ثارت على باشا طرابلس والتي تمكن ابنه محمد من ابادة معظم افرادهـــا

---

[1] ضريح الولي الذي يعرف بسيدي ابو شعيفه .

رغم قوتها التي كانت تسمح لها باعدام كل من يتجرأ على عبور أراضيها حتى أن البحارة كانوا يتجنبون الدخول الى هذه الشواطىء خوفاً من هؤلاء البدو الاشداء .[1] وفي نظري أن ما قام به البي محمد تجاه هذه القبيلة لا يعتبر عملاً يستحق عليه اللوم رغم انني شاهدت رأس شيخ هـــذه القبيلة معلقاً على عمود في نهاية الخليج الشرقية .

الحياة النباتية في هذه المنطقة فقيرة وتمثلهـــا بعض الأعشاب القصيرة التي سرعـان ما تحترق بسبب الجفـاف وشدة الحرارة رغم ان الامطار قد تهطل بغزارة أثنـــاء الشتاء . ان ما جمعته منها ولو انه يذكرني بمثيلات لهـــا في منطقة ليجوريا Liguria (المنطقة المحيطة بمدينة جنوه) ، الا انـــني اشعر ان هذه تختلف في صفاتهـــا وخصائصها مما يجعلني آمل أن تجد فيها شيئاً جديداً .

---

[1] بالرجوع الى معظم القواميس العربية لم استطع ان اعثر في أي منها ما يفيد بأن كلمة سرت تعني الصحراء في اللغـــة العربية ، ولهذا فقد يكون سيلارس في هذا الموضوع هو الرأي والتعليل الصحيح .

بعد رحلة خمس ساعات وصلنا الى مكان يدعى آرار Arar (في مكان وسط بين قصر أحمد والجهة المقابلة لقرية تاورغاء على جانب البحر ، حيث اقيم معسكر المبيت قرب بعض الآبار الرديئة المياه ، كما هو الحال على طول هذا الجزء من الساحل) وفي هذا ما يجعلها تختلف اختلافاً كبيراً عن مياه منطقة ليجوريا . اقمنا طوال اليوم الثاني في انتظار وصول بقية الجيش من مصراته وفيما نحن كذلك جاءنا أربعة من مشائخ بنغازي اخبروا البي أن سوء تصرفات أخيه قد وصلت الى ذروتها واشتد سخط السكان الذين باتوا في انتظارك وترقبك لتقديم جميع ما قد تحتاج اليه . زادت هذه الأخبار من رفع معنوية البي وجنوده الذين وصلتهم في ذات الوقت هدية من التمر من سكان تاورغاء .

قبل مغادرة آرار جمعت كميات كبيرة من المياه ووضعت في قرب من جلود الاغنام التي ذبحت في اليوم السابق بعد نشرها في الشمس ورشها بمسحوق الفحم النباتي. وعلى الرغم من ان هذه المياه قد اختلطت ببعض الدماء وغيرها من الشوائب الاخرى ، الا انني اشربها بنفس

الرغبة التي كنت اشرب بها المياه المثلجة لا لشيء سوى لاستحالة مقاومة العطش . وكما ترى يحق لهؤلاء القوم من البدو ادعاء معرفتهم السابقة لنا في اكتشاف المطهرات التي تستخرج من الفحم النباتي .

قابلنا بعد مسيرة بضع ساعات في الاتجاه الجنوبي بعض التلال الواقعة الى الجنوب قليلاً من مـكان يدعى ملفـــا حيث يكثر نبات الديس وبعض النباتات التي يا كلها البدو دون حاجة الى طهيها . كانت درجة الحرارة في الساعـــة السادسة من صباح هذا اليوم ست درجات مئوية ارتفعت عند الظهر الى ١٩° مئوية وفي هذا ما أرهقني كثيراً الأمر الذي لاحظه الـــبي الذي أشار علي بالتخلص من ملابسي الأوربية وارتداء ثياب كالتي يلبسها الآخرين . وفعـــلاً وجدت في ذلك الكثير من الراحة لاتساع هذه الملابس وامكان دخول الهواء اليها بسرعة وبكميات كبيرة تقلل من أثر فعل درجة الحرارة .

خلال الليل كان الهواء منعشاً بسبب تكون الندى ، وفي الصباح كانت مسيرتنا عبر المستنقعات التي ما ان انتهت حتى ظهرت مجموعة من الاسباخ وكان واضحاً أن

مياه البحر كانت قد طفت على هذه المناطق في الأيام القليلة الماضية . ارتفعت درجة الحرارة واضطررنا إلى التوقف بعض الوقت واصلنا بعدها السفر لمدة ساعتين حيث بلغنا بئر كانت درجة الوحل بمياهه أكثر من كمية المياه نفسها، ولكن رغم ذلك كان لابد لحيواناتنا أن تسقى كما شرب منها بعض الجنود الذين واصلو سيرهم بعد ذلك أكثر همة ونشاطاً .

لم يعد أي وجود لتلك الحيوانات الكبيرة التي قيل انها كانت توجد في العصور الماضية حتى انني لم اشاهد سوى أفعى من النوع المتوسط ، وقليلاً من الغزلان والابقار البرية الصغيرة الحجم ، وبعض الطيور وخاصة طيور الحبارى التي يتفنن البدو في اسقاطها بالحجارة التي هي أشد فتكاً من البنادق التي يحملونها ، وكميات هائلة من البراغيث التي تقلق الراحة بدرجة لا يمكن تصويرها .

ستلحظ لأول وهلة إذا نظرت لادق الخرائط الخاصة بافريقيا أن السواحل الغربية لخليج سرت قد صورت على أساس أن البحر يمثل في هذه المنطقة ، بوغازا أو خليجاً ممتداً من الشمال الى الجنوب لمسافة تقرب من خمسين ميلاً

وبعرض يتراوح ما بين اثنين إلى أربعة أميال حتى أن دان فيل D'Anville اطلق عليـــه اسم خليـــج زوكا The Gulf of Zuca . أما اروسميث ولو أنه رسمـــه على خريطته إلاَّ انه لم يطلق عليه اسماً ما . والواقع انني فشلت في العثور على أي أثر لهـــذا الخليج رغم أن خط سيرنا لا يبعد كثيراً عن ساحل البحر . ولزيادة ايضاح هـــذه المسألة اذكر أن زميلي الكابتن لوتير Leautur ، الذي قام برحلة قصد دراسة ومسح السواحـل الغربية والشرقية لخليج سرت ، لم يجد هو الآخر سبباً مقنعاً لذكر هـــذا الخليج الموهوم .

تعتبر جميع المناطق المحيطة بخليج سرت من الناحية التضاريسية عبارة عن مجموعة من المناطق السهلية التي قل أن توجد بها أي جهات يزيد ارتفاعهـا كثيراً عن مستوى سطح البحر ، ولهذا تستطيع مياه البحر ، وخـــاصة في فصل الشتاء ، الزحف على الرمـــال القريبة من الشاطىء وتغطية الكثير من الجهات المنخفضة حولها مكونة بذلك بحيرات كبيرة تتحول صيفا، نتيجة لتقهقر مياهالبحر وشدة البخر ، الى مجرد احواض منعزلة تغطيها طبقة من الملح .

وبصراحة فقد عجزت في ايجاد الاسباب التي دعت كل من دان فيل واروسميث الى تأكيد وجود هـــذا الخليج ، ومؤكـداً في نفس الوقت انه اذا كان مرجعهم في هـــذا الرأي الى استرابو ، فأنا لا يساورني أي شك في أن ما قاله هذا العلامة لا يختلف مع نظريتي اذ يقول: على الجانب الايمن وبعد أن يترك المسافر رأس مصراته توجد سبخة كبيرة تنتهي الى خليج به بعض الجزر الصغيرة . ان ترجمة خليج بمـا يعـني السبخة خطأ وهو ما وقع فيه بعض الذين نقلوا عن استرابو ، وان الامر لا يعدو الا أنـ يكـون القصـد بذلك الخليج هو ما نعرفه اليوم بسبخة تاورغاء .

وصلنـــا بعد مسيرة تسع ساعات الى مكان يعرف بالزعفران حيث توجـــد بعض الآبار وتنمو الكثير من الحشائش والزهور ،وكانت هناك مخلفات تدل على أن مجموعة من البدو كانت تقيم في هذا المكان الذي تركته على ما يظهر لما عرفت بخبر الحملة الأمر الذي لم يلق استحساناً من البي .

من الزعفران الى امارات

صادفنا بعد مسيرة ساعة واحدة من الزعفران عموداً مرتفعاً عليه بعض الكتابات التي لم يعد بالإمكان قراءتها. وبعد مسيرة ساعة اخرى كان هناك عمود مشابه للأول ثم وعلى بعد نفس المسافة وجدنا عموداً ثالثاً لم يكن بالإمكان قراءة ما عليه من كتابة ونقوش هو الآخر. كما توجد على ساحل البحر مقابل العمود الأول وفي مكان يدعى البنينا El Benina، آثار قلعة قديمة لم أتمكن من معرفة اسمها القديم ولا السر وراء اقامة هذه الأعمدة الثلاثة.

ان ما يحيط بمنطقة الزعفران من نباتات وزهور، وما يتوفر بها من مياه عذبة يجعلني اعتقد ان هذه المنطقة كانت احدى المناطق المأهولة قديماً مما يجيز احتمال وجود تلك

المدينة التي اطلق عليها كل من استرابو و بطليموس مدينة اسبي Aspi ، والتي يقول عنها استرابو بالذات انها تقع مباشرة بعد انتهاء سبخة تاورغاء ، هذا بلاضافة الى ان تحديد اروسميث لموقعها لا يختلف مع مكان هذه القلعة . فاذا صح هذا وكانت الزعفران هي مدينة اسبي القديمة فان مكان القلعة لا بد وأن يكون ميناؤها كما يذكر استرابو . اما بخصوص الاعمدة الثلاثة فانني اميل الى الاعتقاد انها تمثل مكان الحدود بين البطالمة والقرطجنيين .

لا اظن انك تتصور أن البي من الجهل بحيث لم يسمع في حياته عن مدينة بتسبرج ، وانني قضيت ساعة كاملة احاول ان اشرح له فيها كيف يعمل الترمومتر والغرض منه . صادفنا في مكان يدعى نعيم Nehim ، حيث المرعى جيداً والمياه ممتازة ، بعض القبائل البدوية ولما كانت ابلنا وجيادنا منهكة فقد أمرنا البي بوجوب استبدالها من ممتلكات هذه القبائل التي لم يكن بامكانها فعل أي شيء سوى شكر البي على تشريفه لهم بالزيارة (الزعفران منطقة غربي سرت ببضع كيلو مترات) .

عمل الحجاج في هذه المناطق الصحراوية على تحديد

بعض معـــالم الطريق بوضع أكوام من الحجارة ، وعلى مسافات مختلفة ، حتى يضمنوا عـــدم التعرض للهلاك في مثل هذه الجهات المقفرة . وفي أحد الأيام قابلنا سرب من الجراد كاد يغطي قرص الشمس ، وفي هذا المجـال يحدثنـا التاريخ ان قبيلة نسموني Nasamoni كانت تفرح وتهلل لظهور الجراد الذي يأكلونه بعد تجفيفه في الشمس ، وقـد استغربت حـــين رأيت احفاد تلـــك القبيلة لا يزالون يقومون بنفس الفعل فقد جمعوا الكثير منه وأكلوه بشهية بعد شويه على النار .

وصلنا في الخامس من مارس ١٨١٧ الى المنطقة الفاصلة بين طرابلس وبرقه وعلى الرغم من تعب الجميع وقـــلة المياه إلا انها كانت مناسبة سر لها الجميـع .

ازدادت الفوضى وقل امتثال الاوامر مع استمرار ازدياد عدد الجيش مما حمل الباي على التدخل آمراً بوجوب تشديد وتنفيذ الاوامر ، وبوصولنا إلى مـــكان يعرف برقـــه Barga شعرنا بنوع من الراحة لا بسبب تغير المظـــاهر التضاريسية فقط ، وانما لامل انتهاء ما كنا نتعرض له من

العواصف الرملية الشديدة التي كادت تؤدي وفي أكثر من مناسبة الى ردم معسكرنا كاملاً .

مرة ثانية أود ان أؤكد ان ذلـك الخليج الذي تظهره خريطة اروسميث في هذا الجزء من خليج سرت لا وجود له هو الآخر وان كل مــــا في الامر ان احدى السبخات الكبيرة ، التي توجد قرب الساحل ، قد اخذت على انهـا ذلك الخليج الذي لا وجود له .

ذكر العديد من الجغرافيين الأوائل ان جبال اطلس تمتد حتى هذه المنطقة رغم انني لم اشاهد ما يؤيد هــــذا الرأي ، وكذلــــك فيما يتعلق بما ذكره أروسميث الذي رسم على خريطته نهراً صغيراً في هــــذا الجزء من خليج سرت،فالمنطقة لا تزيد عن كونها صحراء جرداء وطبيعي ألا يكون بها أي دليل على وجود مثل ذلك النهر . استطيع أن أؤكد بناء على مـا شاهدته وبجـــانب قراءاتي الخاصــــة أن الحد الجنوبي لخليج سرت هـو في الواقع أكثر جنوبية من الحد الذي تحدده أحسن الخرائط المعروفـة لأنني عجزت عن تحديد مكانـين

يحددان نهاية الخليج وفي هـــذه المنطقة بالذات ، إذ ليس ثمـــة أثر لما كان يعـرف بقلعـة اوتومـــالا Auto Mala ، كما انني لم اجد أي أثر لقبر الأخوين فيليني اللذين يقول عنهـــما بطليموس انهـــما دفنا في الرمـــال .

الوصول الى مارات ؟!

المكان المفضل لمرور القوافل هو مركز مارات التي تتوفر بها المياه والتي يخرج منها طريقان يتجه الاول بحذاء الساحل الى بنغازي ، ويتجه الثاني نحو الداخل مخترقاً اقليم البنتابولس ومنتهياً الى البحر عند درنه[1]

توجد في اقليم برقه وفي النطاق الجبلي بالذات العديد من العيون المائية ويتوفر المرعى ويزداد عدد القبائل البدوية التي من عادتها ارسال كبار قومها الى ملاقاة الـبي

---

(١) يقصد بقرية او مركز مارات أمرين المكان الذي توجد به اليوم مدينة اجدابية وذلك لما يظهر من الوصف ومكان القرية على الخريطة .

وتقديم (البرنوص) والاتاوة المستحقة عليها . أما القبائل التي لا يكون بامكانهـــا دفع الاتاوة فتصبح ملزمة بمرافقة جيش الباي وعلى أن تبقى هكذا الى حين استطاعتها توفـير ما يجب دفعه ، والباي حيث يقوم بهذا العمل انما يهدف الى تحقيق غايتين : الاولى هي ضمـــان حصوله على الاتاوة والثانية ضمان عدم اشتراك مثل هذه القبائل في الثورة التي يقودها أخوه .

وصلنا بعد مارات الى مكان يعرف بقصر دوقا حيث لاتزال هناك الكثير التي تمتد لمسافة ميلين تقريباً (لعـــله يقصد المنطقة التي تعرف حالياً بالزويتيبة) ، والى الشمال من هذه المنطقة تصادفك وفي أكثر من مكان واحـد بقايا أثرية متنوعة مما يدل على ان المنطقة كانت آهـلة بالسكان في يوم من الايام .

نحن الآن في منطقة بنغازي : المنطقة السهلية الواسعة التي تسكنها مجموعة من القبائل البدوية التي كانت تسرع في مقابلة الباي وتقديم البرنوص والامـــدادات من جنـد ومؤونـــة .

في منطقة الجبل الاخضر

قضينا يومين قبل الوصول الى الابيار التي بلغناها في الخامس من شهر مارس ، والابيار تمتاز بموقعها الجميـــل وغنى المرعى ووفرة المياه التي يحصل عليهـــا من الابار القديمة التي قد يصل عمق بعضها الى اكثر من مائة قـدم ، امـا التلال التي تحيط بهـا فتغطيها أشجار الصنوبر التي كانت تعتمد عليها مدينة قورينا فـــيما تحتاج إليه من وقـــود .

جمـــع البي رؤساء القبائل وطلب منهم العمل على مساعدته في تعزيز جيشه وتأييده الكامل فيما جاء من أجله. يحيا الرجال حياة الكسل في أتم صورها باستثناء القلة الذين يقومون بصيد النعام الذي يكون جزءاً هاماً من تجـــارة

بنغازي ، في حين تقوم النساء بجانب وظائفهن الرئيسية بعمليتي غزل ونسيج الصوف ، وعموماً يشترك الجميع في كره النظافة وهذا ما ساعد على انتشار الكثير من الامراض بينهم . زارنا السيد جاكمو روسيني Gacomo Rossini اخ القنصل البريطاني في مدينة بنغازي وكان برفقته ضابط مالطي جاء قصد الاتجار بالماشية ، والواقع ان زيارتهما قد خلقت في نفسي نوعاً من الراحة لانهما اول اوربيين اقابلهما منذ مغادرة طرابلس .

جاءت الاخبار لتعلن للبي ان اخاه غادر درنه متجهاً نحو الحدود المصرية ومنها الى القاهرة لاعتقاده ان باشا مصر سيقدم له ما يحتاجه من مساعدة في حالة استمرار تتبع جيشنا له . كان الصيف على الابواب وكان على البي أن يحدد الطريق التي سيسلكها في متابعة اخيه، وبالفعل، قرر بعد استشارة المقربين اليه مواصلة اختراق هضاب الجبل الاخضر ليتمكن من جمع الاتاوة من القبائل التي تسكن هذه الجهات وحتى يتمكن ايضاً من قضاء الصيف في مكان قورينه القديمة . كانت فرحتي لاتتصور صباح يوم ٢١ ابريل وهو اليوم الذي بدأنا فيه رحلتنا الى قورينه

التي ذاعت شهرتها بين الاقدمين . انقضت اربع ساعات قبل وصولنا الى المكان المعروف بالبنت El Bent حيث تقوم إحدى القلاع الاثرية التي تغطي جدرانها كتابات قديمة ليست فينيقية ولا رومانية والتي لم اتمكن من اعادة نقلها لما أصابها من تلف ، كما توجد أيضاً مجموعة كبيرة من المقابر التي تسكنها اسراب لا تحصى من الحمام البري. الطبيعة جميلة للغاية والمظاهر التضاريسية متنوعة بدرجة تلفت النظر ، وكلما قربنا من قورينه ازدادت بقايا الآثار وازدادت روعة النمط المعماري ايضاً .

وصلنا الى جردس بعد رحلة سبع ساعات ، والذي يلفت النظر في هذه المنطقة كثرة بقايا الاعمدة التي لا بد وانها كانت مستعملة في تشييد ما كان هناك من مباني . ومن جردس كان طريقنا الى زلنطة حيث قبر الولي المشهور سيدي محمد الحمري الذي زاره الجميع بعد ان أمر البي بنحر ثور وتوزيع لحمه على مساعديه باستثنائي انا طبعاً باعتباري غير اهل لمثل هذا الشرف . لقد فكرت في الأمر كثيراً ثم تسللت ، بعد تغيير ملابسي ، وسط الجموع ووصلت الى داخل الضريح حيث وجدتهم قد أعدوا

أحسن واشهى وجبة تناولتها طوال الرحلة .

كانت المنطقة ولمسيرة عدة ساعات تتخللها بقايا الكثير من الآثار والقبور مما يدل على انها كانت عامرة بالسكان ، وعلى الرغم من ان المنطقة تكاد تكون مهجورة حالياً إلا انك ستلحظ خصوبة الارض وكثرة اشجار الزيتون البري . ان جمع محصول الزيتون وتصنيعه كفيل ، إذا ما صدر الى احدى الاقطار الاوربية ، أن يزيد من ثروة المنطقة. إلا ان استعمال البدو للزبد بديلاً عن الزيت بلاضافة الى جهلهم لا يسمح اليوم باستغلال شجرة الزيتون التي يشاركها الاهمال كل من اشجار التين والخرنوب . وعلى الرغم من عدم وجود أي نوع من الزراعة إلا انني متأكد ان هذه الجهات أكثر خصوبة وانتاجية من أي منطقة مستغلة من بلادنا .

ان اكثر ما يدهشني هو اهمال هذه المناطق على الرغم من خصوبتها البالغة ، واعتدال مناخها ووجود الشواهد الاثرية على مدى غناها في القديم . وبصراحة فأنا لا أفهم لماذا لم تستغل القوى الاوربية فرصة الحروب الصليبية وتحتل هذه المنطقة لتكون منها مستعمرة غنية وذلك

باتباع سياسة الشعوب الاوربية القديمـــة التي تمكنت من احتلالها وتركت عليها آثارها التي ولا شك ستكون شاهد عيان لمن يجيء من القوى الاوربية . ان أي بحـار ايطالي يجوب منطقة البحر المتوسط الجنوبية ترتعد فرائضه اذا لاحت له سواحل هذه المنطقة ،فهبوب الرياح الشمالية بالنسبة لاي بحار ، تحمل معها امكان وصوله الى هذه السواحـــل وانهاء حياته في الأسر . والآن دعنا نناقش مـا هناك من عراقيل قد تمنع مختلف الحكومات الاوربية من قيـــام مستعمرة لها على هذه السواحل الغنية . انه بالتأكيد ليس الخوف من قوة وشراسة سكانهـا الذين لا يشكلون خطراً الا بالنسبة لمجموعات الحجيج التي تعبر هذه الجهات والتي يعاملونها وكأنها قطعان من الغنم. فالمخاوف التي تقوم حول سكان هذه المنطقة ليس لهـا أساس من الصحة اذ ان الجزء المأهول والذي يمكن استغلاله ما هو الا شريط ضيق نسبياً وفر له قرب صحراء سرت والصحراء الكبرى من الجنوب عوامل حماية طبيعية يصعب بل يستحيل اختراقها على اي مجموعة يمكنها ان تهدد أمن المنطقة. وبالمثل وفرت صحراء مصر عاملاً طبيعياً آخر يصعب اختراقـــه ويمكن توفير

الحراسة على الأجزاء الشمالية منه . اما بالنسبة لخط الساحل فهذا هو الآخر لا يوفر مناطق غزو سهلة باستثناء بعض الموانىء الصغيرة التي يمكن فرض الرقابة والحماية عليها . وفي هذا ما سيعمل على توفير الأمن لأي قوة أوربية وخاصة وان الانتاج الرعوي الحالي سيكون بامكانه توفير المستلزمات الأولية للقادمين الجدد ، والسماء وحدها عليها أن تمنع ما يحول دون تحقيق مثل هذه الفكرة التي أود صادقاً في حالة تنفيذها الا يلجأ القوم الجدد الى استخدام وسائل القوة كما حصل مع المستعمرين القدماء ، لأن في بقاء البدو على حالهم ضمان لتوفير الخامات التي ستكون أساس بناء نهضة المستعمرة الجديدة . ومن رأيي أن طبيعة المنطقة ونوع التربة سيجعل بلامكان قيام زراعة اشجار العنب ، وزراعة اشجار النخيل على الهضاب الجيرية وعلى طول الشريط الساحلي . كما أن وفرة المرعى في الاودية العديدة سيجعل من السهولة توفير العلف لعدد أكبر من الحيوانات التي يستحسن استمرار ملكيه البدو لها لأن في استمرار هذه الحرفة ما يؤدي الى زيادة الثروة الحيوانية بجانب العمل على كسب صداقة البدو وتأييدهم للمستعمرة الجديدة .

اشتهرت برقة في القديم بجودة أصوافها اكثر من أي بلد آخر ، وبالفعل فان الصوف الحالي تفوق جودته أحسن الانواع في بلادنا . أن وظيفة المستعمرة الجديدة لا يجب ان يكون في التناحر والقتال مع السكان الوطنيين ولكن في احترام عاداتهم وتقاليدهم وقيام بعض الصلات الطيبة معهم لأن احترام دينهم وتشجيعهم عليه سيؤدي حتى الى صقل أذهانهم وبالتالي سيعمل على قيام صلات قوية معهم في المجال الاجتماعي .

انني لا أعتقد ان مثل هذه الخطة يمكن وصفها بأنها فرض مستعمرة متقدمة على قوم من البدو ، فنحن وان كنا نفتقر الى الدراسة الكافيـــة عن التنظيمات السياسية لسكان برقة القدماء الا اننا نملك الكثير من المعلومات عن مدى ثروتهم ورفاهيتهم ومدى قوتهم أيضاً. فالآثار العظيمة التي لا يخلو منها مكان تعطي دليلاً مادياً على هذا ، وخاصة وأنه بات من المؤكد أنه خلال فترة حكم الاغريق الزاهرة كانت هناك مجموعات من البدو تعيش فوق روابي برقة وتمارس حياة الرعي . أن مـا خلفه هيرودوت عن وصف اولائك البدو ينطبق كلية على سكانها اليوم . فما ذكره

هيرودوت وبعض الجغرافيين يؤكد لنا ان منطقة روابي برقة كانت هي الميدان الوحيد لسكن وتنقلات القبائل البدوية في العصور القديمة: انها المنطقة التي قامت فيها المدن المزدهرة مثل قورينة وبرقة، وسوسة، وتوكرة وطلمثية، وفي الاستدلال بهذه الاقوال ما يعطينا الدليل على أن ثراء وازدهار تلك المدن انما قام بجانب مجهودات سكانها، على ما كانت تحصل عليه من وفرة الانتاج الرعوي. انني آمل ومن كل قلبي ان يعطي هذا الانتاج ومن جديد ما كان يوفره من مصادر ثروة في هذه المنطقة الخلابة التي يمكن ان توفر مصادر جديدة للصناعة وقيام اتصال بحري مع موانىء بلادنا.

في الطريق الى قورينة

يتفرع بالقرب من ضريح سيدي الحمري طريقان يسير الأول غرباً الى بنغازي ويخترق الثاني المنطقة الجبلية الى قورينة ودرنه. وكما كان هم البي جمع اكبر قدر من الاتاوات فقد تاخر وصولنا الى قورينة الى شهر مايو. اكتشفت اثنتين من العيون المائية في منطقة سباج Spaghe الواقعة شمالي شرقي زلنطة. ولما كانت هذه هي أول مرة اشاهد فيها العيون المائية،على الساحل الافريقي، فقد اسرعت لاخبر البي الذي ضحك مني واعتبرني مجرد كاذب.

حدثت في هذا المكان ظاهرة خطيرة اقلقت بال

الجميع فقد ماتت الكثير من جمالنا رغم الأحجبة العديدة. ولا اخالني فخوراً اذا قلت انني قد اكتشفت بالصدفة احدى النباتات السامة التي تنطبق عليها جميع الأوصاف التي ذكرت حول نبات السلفيوم الذي كان سكان برقـــة يقومون باستخراج عصير من جذوره لتصديره الى الخارج ، والذي وصفه المؤرخ بليني بأنه ذلك النبات الذي يحمل الغنم على النوم ويترك الماعز يعطس بعد اكله . لقد عمل البدو على تدمير هذه الشجرة الصغيرة على اعتبار انها سامة ولعل هذا هو السر في ندرة هذا النبات الذي كان يشكل دخلاً هاماً لبرقة حتى ان حكامها قاموا برسم صورته على بعض أوجه العملة التي كانت متداولة ، والذي وصفه أحد مختصي علم النبات بقوله : للسلفيوم جـــذور سميكة تحوي عصارة وفيرة لها خصائص طبية وأنه يوجد في ضواحي قورينة وحـــول خليج سرت قرب حدائق أيوسبريدس Gardens of Eusperides ، والذي اشار اليه استرابو بذكره استخراج العصير من جذوره . انني مؤمن ان اندثار هـذا النبات قد تم نتيجة لغزو القبائل البدوية هـــذه المنطقة. وعلى ما اذكر فقد قرأت مرة أن هذا النبات قد وجد مرة

في عهد الامبراطور نيرون حين أرسل اليه على اعتبـــاره شيء نادر الوجود . وقد اخطأ الكثير من البــاحثين في تصنيف هذا النبات ، الذي كان يحمل اسم السلفيوم دائماً ، حتى أن بعضهم يذكر ان (عصير برقـــة) والسلفيوم انتاجان مختلفان .

اخبرنا كثير من الكتاب الثقاة أن السلفيوم نبـــات يقتصر وجوده على برقة حتى انهـا كانت تعرف باسمه في بعض الأحيان . أن هجرة هذا النـبات الى جهات اخرى واندثاره كلية يصعب علي قبوله ويجعلني أومن أن النبات الذي عثرت عليه هو بعينه نبـــات السلفيوم الحقيقي . لم يكن من الصعب اقناع الي بترك المنطقة التي توجد بها هذه النباتات الضارة . ولهذا فقد رحلنا في اليوم التالي الىسلوق وعسكرنا قرب اثنتـــين من العيون العذبـة حيث يتوفر بلاضافة الى ذلك جمال الطبيعة واعتدال المنـــاخ وخلو المنطقة من النباتات الضارة وهو ما ترك اثراً كبيراً فيِ نفس

البي الذي قرر اقامة معسكر له في هذه المنطقة [1] .

كان لا بد أن افكر في وسيلة تمكنني من زيارة قورينه وخاصة ونحن لا نبعد سوى مسيرة ثلاثة ساعات عنها رغم أن فكرة اغتيالي من قبل أي بدوي تسيطر على ذهني باستمرار ، وفي هذا ما جعلني اطلب مساعدة البي الذي وفر لي اثنان من الشواش ولكن بشرط ان اكافئهم على خدماتهم . تقوم المئات من القلاع الدفاعية على طول الطريق رغم انني لم اعرف ما إذا كانت وظيفتها توفير عامل الدفاع والحماية ضد هجمات القبائل البدوية أم انها مجرد حصون للدفاع عن سلامة المنطقة بغض النظر عن نوع الخطر ومصدره . بعد قضاء يوم كامل في قورينه ، التي كانت تمثل أهم معالم الحياة والعمران في برقه ، كان علي ان اعود الى المعسكر خوفاً على حياتي ، وبعد مسيرة ثلاثة ساعات من زيارتي الثانية لقورينه وصلنا الى أبولونيا

---

١ — هنا يخطىء المؤلف بوضعه سلوق بين منطقة سيدي الحمري وقورينة والصحيح أن سلوق تقع في سهل بنغازي وليس على الجبل الأخضر .

(سوسة) التي كانت إحدى الموانىء القديمة والتي تكثر بها هي الاخرى بقايا الاعمدة والمنازل وبقايا المجاري المائية الصناعية التي كانت توصل المياه إليها كما هو الحال بالنسبة لتلك المجاري التي كانت تزود حاجة قورينه من المياه .

في إحدى المرات وبعد رجوعي من قورينه قابلني البي الذي كان لطيفاً في معاملتي حتى انه سألني عما إذا كنت قد عثرت على كنز ما . كان جوابي بلايجاب واضفت انه اثمن كنز يمكن ان اعثر عليه : انها عين كبيرة ماؤها عذب وتستطيع توفير كامل احتياجات جيشنا بما في ذلك حاجة جميع البدو الذين في رفقتنا . ظهر الاندهاش على البي واظهر كامل استعداده لمرافقتي في اليوم التالي ليتأكد بنفسه من هذه الظاهرة الفريدة التي أخبرته عنها ، والتي ما كاد يشاهدها حتى أصدر أوامره بانتقال كامل المعسكر لملاقاته بقربها . كان الجو متوتراً فقد كان جيش البي الذي نطارده معسكراً في درنه وكان على البي أحمد أن يعمل باستمرار على نشر الاخبار الخاصة بعزمه على ملاحقة أخيه الذي يظهر انه لم يعد يطمئن على سلامته في درنه مما جعله يقرر تركها والانتقال الى منطقة خليج

بمبه . كانت هـذه الاخبار التي وصلتنا يوم ٢٠ يونية أكثر من أن تكون مشجعة لقـــائد حملتنا الذي أصدر أمره بوجوب التحرك السريـع لمتابعة أخيه . في صبـاح اليوم التالي كانـ الركـب في طريقه الى القبة التي اقمنـــا فيها بعض الوقت لعذوبة ووفرة مياهها ، ثم تابعنا السير في منطقة صعبة للغاية أدت الى فقدان بعض جيادنا .

مدينة درنه

تقع درنه في سهل ضيق موفور الخصوبة ، وتحيط بها مجموعة كبيرة من الحدائق المليئة بمختلف اشجار الفاكهة ، وتحصل على حاجتها من المياه عن طريق اثنتين من العيون في وادي درنه تعرف احداها بعين درنه ، وتعرف الثانية بعين أبو منصور .

تتوفر الامكانيات في درنه لحياة مجموعة كبيرة من السكان ، فاحتياجات اللحوم واللَّبن يوفرها العرب الذين يرعون حيواناتهم على حافة الهضبة ، أما الحبوب والخضار فتزرع محلياً وبكميات كافية ، كما يقوم بعض السكان بلاتجار في العسل الذي يكثر في الجهات المحيطة بالمدينة ولكن رغم هذا فالحياة في درنه يعكر صفوها عدم

استقرار الامور إذ كثيراً ما تغير عليها وتنهبها القبائل البدوية التي تحظى بتاييد الحاكم لها .

نزل الي قلعة كبيرة وسط المدينة التي كان قد أصابها وباء أدى إلى تخفيض عدد سكانها من سبعة آلاف إلى عدد لا يزيد كثيراً على خمسمائة شخص فقط . كانت الولايات المتحدة ترغب في إحدى الفترات ، في اتخاذ درنه قاعدة لها ، وحين رفض طلبها لجات ، مع توفر بعض الأسباب الاخرى ، الى محاصرتها والاستيلاء عليها ، ثم ولاسباب لا أعرفها ، قررت تركها بعد فترة وجيزة مخلفة وراءها بعض المدافع وطاحونة مائية لا تزال مستعملة [1] .

---

[1] الواقع ان موضوع احتلال درنه من قبل الامريكيين بمعاونة الي أحمد أخ يوسف القرەمانلي باشا طرابلس موضوع يظهر أن المؤلف لم يكن يعرف عن تفاصيله أي شيء . فقد احتلت درنه في بداية سنة ١٨٠٥ثم جلت عنها القوات الامريكية حسب الاتفاق الذي ابرم بين يوسف باشا والحكومة الامريكية بتاريخ ٤ يونية من نفس السنة . (لمزيد من الايضاح راجع كتاب انهيار الاسرة القرەمانلية ، تأليف الزميل عمر بن اسماعيل من صفحة ١٠٠ الى صفحة ١١٦).

أدى صغر حجم ميناء درنه ، وعدم توفر الحماية التي تحتاجها السفن في الظروف الجوية الصعبة مضافاً الى ذلك ، وبنفس الاهمية ، صعوبة الاتصال البري مع الداخل الى تقليل أهمية هذا الجزء من الساحل في نظر المستعمرين الاوائل . وبالمناسبة يوجد بين درنه وسوسة خليج كبير تتوفر له الحماية الطبيعية أكثر من غيره من جهات هذا الساحل ، وفي ظني لابد أن يكون هذا الميناء (رأس الهلال) هو ما كان يعرف بميناء NauStadmos .

تأكد للجميع في درنه مدى وحشية وقسوة الباي محمد فقد كانت ارضية القلعة لا تزال مغطاة بدماء وجثث العديد من القتلى الذين كان في مقدمتهم اكثر ما كان لديه من جواري لانه على ما يظهر ما كان ليسمح ان يملك غيره ما كان في حوزته مضافاً الى ذلك ما قد يسببه له من تأخير في الرحيل . وكان من ضحاياه أيضاً العديد من أفراد تلك القبائل التي كانت موالية له والتي تخلى بعضهم عنه لما عرفوا بوصولنا .

جاءت القبائل القريبة لتقديم فروض الولاء والطاعة لقائد حملتنا الذي أظهر لهم عطفه وطلب الى بعضهم

تاكيد ولائهم بالعمل على ارسال وفد من عشرين شخصاً من كبار قومهم ليرفعوا ولاءهم الى والده باشا طرابلس . لقي هذا الاقتراح قبولاً من الجميع وفعلاً ارسل الوفد دون أن يدرك الجميع ان في الامر مؤامرة تدبر .

ترك استيلاؤنا على درنه وخضوع جميع القبائل دون اللجوء الى استعمال القوة اثراً سيئاً في نفس الاخ الثائر حتى انه قرر مغادرة المنطقة نهائياً واللجوء الى القاهرة في حماية الباشا محمد علي الذي تربطه به صلة الرحم . شجعت هذه الاخبار السارة البي أحمد على ترك درنه ومتابعة السير الى خليج بمبه حتى يتاكد نهائياً من فرار وانهزام أخيه .

يحدد الجغرافيون على هذا الخليج ميناء مينالاوس الذي ذكره أيضاً كل من هيرودوت واسترابو وبطليموس، ومع هذا فلم اتمكن خلال اقامتي القصيرة من العثور على أي من بقايا السكان الاقدمين رغم وصولهم الاكيد الى هذه الجهات ولو ان بعض البدو أكدوا لي وجود بحيرة بوسطها جزيرة صغيرة مليئة بالبقايا الاثرية الى الجنوب من خط الساحل الحالي .

الحدود بين طرابلس ومصر ليست واضحة المعالم

بسبب بعدها عن مركزي الحكم في طرابلس والقاهرة ، ولهذا فلا غرابة أن تتحول هذه المنطقة الى مأوى أمين للقتلى واللصوص الذين قل ان ينج الحجاج من الوقوع بين أيديهم ، واكثر من هذا ، تمكن هؤلاء في السنوات القليلة الماضية من التعرض لقافلة عم حاكم المغرب التي تتكون من ثلاثة آلاف شخص والتي تم نهبها رغم هذا العدد الكبير من المرافقين ، أما في غير أوقات الحج فيحترفون الاتجار في الماشية التي ينهبونها من القبائل المستضعفة .

وصلت حملتنا الى نهايتها السعيدة لا لاننا لم نلق أية مقاومة من ساعة خروجنا من طرابلس بل وهو الاهم لما اظهرته جميع القبائل من ولاء وتعلق بالحاكم الجديد واستمرار تبعيتها لباشا طرابلس ، وفي هذا ما جعل البي أحمد يقرر سرعة العودة عن طريق الابيار ومنها الى بنغازي حيث كان على ما يظهر في شوق وعلى اتم استعداد للاحتفال بشهر رمضان .

مدينة بنغازي

تقع مدينة بنغازي على حافة السهل بالقرب من خليج صغير لا يتسع في العادة إلا للمراكب الصغيرة بسبب ما يعترض مدخله من صخور كثيرة تحول دون وصول المراكب الكبيرة وخاصة أيام العواصف مما يضطرها الى الرسو على بعد خمسة أميال إلى الجنوب من الميناء المذكور .

توجد خلف المدينة بركة ، كثيراً ما تظهر بها أسراب الطيور البرية ، وتتصل هذه البركة مع البحر بممر ضيق لا يسمح بمرور غير مراكب الصيد الصغيرة . فإذا صح أن مدينة بنغازي تحتل بالتقريب مكان برنيتشي القديمة

حيث لا تزال بقايا الكثير من الآثار ، فان هذه البركة لا بد وأن تكون سبخة تريتونس Tritonis التي ذكرها المؤرخ استرابو ولكن مع اختفاء الجزيرة التي كانت تتوسطها وعدم ظهور معبد فينوس الذي كان قائماً فوق تلك الجزيرة . وكما اختفت تلك الجزيرة والمعبد فانني لم الاحظ أثر لمجرى نهر الليتي الذي قيل انه ينتهي الى هذه البركة . لعل مضي الزمن هو الذي أدى الى تدمير المعبد وإزالة الجزيرة التي كانت تضمه ، اما بخصوص النهر فانني وبالتأكيد لم استطع ان اجد أي أثر لأي مجرى مائي ما بين بنغازي وحافة الجبل . وهنا لا بد ان اشير الى ان اطلاق لفظ النهر عند القدماء يجب أن يؤخذ بحذر وخاصة في منطقة جافة كهذه ، لانني شاهدت اطلاق هذا الاسم على أي مجرى مهما بلغ صغره والذي بكل تأكيد لن تجد له أي أثر خلال الفصل الجاف من السنة .

لاحظت في المنطقة السهلية المحيطة بالمدينة وجود بعض اشجار النخيل وبعض الرقع الصغيرة المزروعة شعيراً ، أما فيما عدا ذلك فان باقي المنطقة يكاد يكون

خالي من السكان تقريباً . كما يرى المرء داخل المدينة الكثير من الآثار المبعثرة التي يعمل السكان على تحطيمها وبناء منازلهم بها بعد خلطها بالطين ، أما الاسقف فتغطى بتبن البحر بعد مزجه بالوحل والطين وفي هذا ما يضطر السكان الى ترميمها كل سنة قبل بدء موسم سقوط المطر الذي يعمل في الكثير من الحالات على إزالة هذه الاسقف وتهديم المنازل بكاملها .

لا يختلف بيت الباي كثيراً عن باقي بيوت المدينة من حيث طراز العمارة به رغم ان سطحه مزود من الجهة المقابلة للمدينة بتسع فتحات ركبت عليها بعض المدافع التي يؤدي اطلاق أي منها الى تحطيم جزء الحائط الموضوع فوقه المدفع .

يسكن بنغازي حوالي ٥٠٠٠ نسمة نصفهم على الأقل من اليهود ، وبنغازي بجانب كونها العاصمة فانها قصر سكنى الباي الذي يمثل السلطة المدنية والعسكرية والقضائية والذي يقوم بنفسه بتنفيذ الاحكام التي يصدرها . والواقع ان وظيفته تتمثل في الدرجة

الاولى على جباية الضرائب المالية المجحفة التي بعضها محدد ودائم وبعضها الآخر شخصي ومؤقت . تمكنت في المدة القصيرة الماضية إحدى القبائل البدوية من الهجوم على بنغازي وطرد معظم سكانها ومع ذلك لم يكترث باشا طرابلس للأمر بل وأكثر من هذا فقد اعلن للملأ شكره العظيم لسكان هذه المدينة الذين دفعوا له الضرائب مرتين في سنة واحدة .

كل من تطأ قدماه سواحل برقة لابد وان يتعرض لبعض المضايقات التي من أكثرها سوءاً حشرة الناموس . ففي المنازل والشوارع وحتى في ضواحي المدينة ليس هناك أكثر من هذه الحشرة التي تلقي بنفسها على أي شيء والتي تحتاج لابعادها عنك الى مجهود مضني ودون أن يثمر أبداً . ان اي طعام بمجرد وضعه على المائدة ستغطيه هذه الحشرات القذرة التي اذا حاولت التخلص منها فانها ستعود في هجوم أشد وطأة وفي هذا ما دعا السكان الى انتظار حلول الظلام ليتمكنوا من تناول طعامهم . لقد قيل ان كثرة الماشية وما تنتجه من كميات كبيرة من اللبن

وما يصنع منه من جبن وسمن على مناطق الهضاب القريبة هي الاسباب التي أدت إلى وجود هذه الأسراب الهائلة من الناموس . ولكن وبدون طرح هذا الرأي جانباً ، فانا اعتقد ان هناك سبباً قوياً داخل المدينة نفسها هو الذي خلق مثل هذه الظاهرة ، لأنني جربت الحياة في منطقة الجبل مركز تجمع الماشية ومع ذلك فلم أتعرض أبداً لمثل ما اتعرض له في بنغازي .[1]

يكون اليهود الجزء العامل بين سكان المدينة ، أما الجزء الباقي فيعيش في حالة شبه بطالة وعلى حساب غير المؤمنين ، فاليهود غير مسموح لهم بامتلاك منازل خاصة بهم وعليهم في نفس الوقت أن يدفعوا إيجاراً باهظاً مقابل سكنى بيوت المسلمين .

تجلب القبائل التي تمارس الرعي على هضاب برقة

---

[1] يتكون الناموس عادة في المياه الآسنة وخاصة اذا كانت بها نسبة من الاملاح كما هو الحال في معظم الاسباخ المحيطة ببنغازي ، ان هذا التفسير ليس بخاف على الكثيرين وفي جهل دي شيلا وهو طبيب بهذا الأمر مايدعو الى الاندهاش .

اعداداً كبيرة من الماشية والحيوانات الاخرى لتسويقها في المدينة بجانب كميات هـــائلة من الصوف والزبد والعسل وريش النعام . أما ما يشترونه منهـــا فيتمثل أساساً في البنادق ومسحوق البارود والملابس المصنوعة في طرابلس بجانب الحاجـات المنزلية الاخرى . كما تقوم بين بنغازي ومالطه تجارة واسعة في الماشية في حـين ينقل الصوف الى طرابلس لصنع الملابس والسجاجيد ، أما ريش النعـــام فيمكن أن يكون جـزءاً هاماً من تجارة المنطقة لو أن التجار الاوربيين يستطيعون شراء هذه السلعة من البدو مباشرة وهو مــــا لا يمكن تحقيقه لاحتكار التجار اليهود لهــــذه السلعة مقابل دفع مبالغ كبيرة لباشا طرابلس . وعموماً يحصل التجار اليهود بعد تصدير هذه السلعة الى مرسيليا على أسعار لا تقل بحال عن ثلاثة أمثال سعرهــــا الأصـــلي .

توجد العديد من الاعمدة الاثرية التي لا تزال قائمـة في أكثر من مكان واحد حول المدينة، هذا بجانب ما يوجد من النقود الاثرية وأدوات الزينة الذهبية والفضية كما توجـد

بين حين وآخر بعض الاحجار الثمينة والجواهر . وقـد استطاع روسيني نائب القنصل البريطاني جمـع الكثير من الاحجار الثمينة التي يحضر بعضها إليه البدو مقابل دفع التعويض المناسب ، أما الباقي ، وهو الغالبية ، فقد وجدت في أماكن مختلفة من بنغازي نفسها .

عودة الى الجبل

استغليت فرصة اقامة الجيش في بنغازي لأقوم ببعض الرحلات القصيرة الى الجبل الاخضر ، فبعد مسيرة أربع ساعات من المدينة يصل المسافر الى مكان يعرف بعين الزيانه التي بعد تركها بساعتين تظهر آثار دريانه التي تذكرني بالامبراطور ادريان والتي مع الاسف قد تحولت الى كومة من الانقاض . واسم دريانه ولو انه سقط ذكره عند بعض المؤرخين إلا ان المؤرخ بيوتنجر يسميها ادريانه بولس (مدينة دريانه) . بعد دريانه تجيء برسس التي كانت في يوم من الايام آهلة بسكانها المغاربة الذين تمكن البدو من اجلائهم عنها لحاجتهم لمياهها العذبة والتي بعد

تركها بثلاث ساعات تقابلك توكرة التي غير البطالسة اسمها الى ارسينوي Arsinoe الذي اهمل مع الزمن ليحل محله الاسم الحالي توكرة التي يوجد بينها وبين حافة الجبل سهل فسيح يصلح للزراعة ، ويحيط بها سور مربع الشكل يبلغ طوله حوالي ميلين ويظهر وكانه برج كبير للمراقبة رغم ان بعض اجزائه قد أخذت في السقوط وخاصة من الجهة المقابلة للبحر .

وتوكرة رغم وجود السور حولها عبارة عن كومة من الانقاض باستثناء بعض المباني القليلة التي لا تزال قائمة والتي منهـــا القلعة والمعبد وتلك النقوش العظيمة التي تغطي معظم الجدران الداخلية لسور المدينة والتي على ما اعتقد تشرح تاريخ المدينة منذ نشأتها

يحدد هيرودوت مكان توكرة بوقوعها على ساحل البحر وقريباً من برقة (المرج الحالية) . والواقع أن مدينة برقة ، الواقعة على الجبل ، لا تبعد عن مكان توكرة إلا ببضع أميال . أما استرابو وبطليموس فيتفقان في تحديد مكانها ما بين طلميثة وبنغازي الحالية . وهكذا يتضح أن جميع الآراء تتفق اتفاقاً تاماً في تحديد مكان هـذه المدينة

الاثريـــة الأمر الذي يحل إحـدى اشكالات الجغرافية القديمة . ولكن كيف نفسر مــــا يرويه الرحالة جيمس بروس الذي ذكر انه زار آثار Arsinoe ولم يجد فيها ما يستحق الذكـر ، وهنا لا يجب أن نحكم مقدماً على رواية هذا المغامر بعدم الصحة ، لاننا إذا تتبعنا مسيرته ووصلنا معه الى طلميثة التي يصفها بأنها مدينة محاطـــة بسور لا تزال مبانيه وبواباته كاملة ، وان الاجزاء الداخلية من هذا السور تعلوها الكثير من النقوش ، وأنه يذكر بل ويحدد مكان بعض الآثار التي لا تزال قائمة . ان أي مرجــــع يؤكد أن طلميثة ليس بها هذا السور الذي يذكره بروس وان الذي حصل هو انه عند تدوين ملاحظـاته كان يعني توكرة وليس طلميثه ، لأن ما ذكره من آثار داخل السور المذكور هي في طلميثة وليس في توكرة التى قال عنها انـه لم يجد بها ما يؤكد سابق تاريخهـا . ان هذا يعني ان بروس كان يقصد ذكر توكرة للمدينة المسورة وليس طلميثة التي أصاب في تحديد ما ذكره بها من آثار .

أكد لنا كل من استرابو وبليني وغيرهم من الجغرافيين القدماء أن طلميثة انها تقوم على نفس المكان الذي قامت

عليه مدينة برقه القديمة غير أن بطليموس يختلف مع هذه الآراء ويحدد موقعها على البحر بينما تقع برقة كما هو معروف الى الداخل . لقد تحدث هيرودوت كثيراً عن مدينة برقة وعن تأسيسها من قبل أبناء الملك بتوس Battus ، وعن منازعاتها مع قورينه ، وعن حظها السيء أيام الفارسيين على الرغم من انه لم يحدد لنا موقعها . وعموماً يحق أن أقول انني قد تمكنت من اكتشاف مكان برقة القديمة في مكان يعرف اليوم بالمرج التي تبعد قرابة مسيرة ساعتين عن طلمثية والتي تتكون آثارها من بعض المباني المهدمة وبعض القبور والآبار العميقة التي لا يزال بعضها مستعملاً ، ومكان هذه المدينة ذو طابع ريفي إلا انه أقل في كثافة حياته النباتية من بقية هضاب الجبل الاخضر .

حينما كنت متجولاً فوق روابي برقة بغية الاطلاع ومحاولة العثور على ما يهمني في دراسة التاريخ الطبيعي أو فيما قد أجده من مخلفات أثرية هامة ، كان كل شيء على مايرام في بنغازي وخاصة وان المدينة قد بدأت تحتفل

ببداية شهر الصوم الذي يضفي عليها مظهراً أهم ميزاته قلب سيرة الحياة العادية فيها .

خلال شهر رمضان ، شهر المحبة والسلام كانت تدبر في بنغازي واحدة من أبشع المؤامرات فعلى الرغم من أن قطرة دم واحدة لم تسفك من لحظة مغادرتنا طرابلس إلا ان حدوث ما سيعكر صفو ذلك الجو الآمن الذي عشناه قد أصبح وشيك الحدوث لأن قبيلة الجوازي لم يغتفر لها بعد انضمامها الى البي محمد رغم انها ارسلت ، بناء على طلب البي أحمد ، بعثة من كبار قومها طلباً لصفح وغفران يوسف باشا لها على ما ارتكبت من حماقة ضده . ولكن رغم هذا فالباشا لا يزال يؤمن، في قرارة نفسه ان مهادنة القبيلة وخضوعها لسلطته وارسالها خيرة قومها طلباً لتسامحه لا يعدو أن يكون مجرد خضوع ناجم عن خوفها من رهبة جيشه . ولهذا فقد طلب الى ابنه احمد فيما طلب إليه أن يظهر التسامح مع هذه القبيلة ولكن بشرط أن يعمل في ذات الوقت على انتهاز الفرصة الملائمة لانزال ضربة تقصم ظهرها والى الابد .

طلب البي أحمد من جميع مساعديه وجوب العمل على

اعتبار هذه القبيلة وكأنها أولى الموالين له ولجيشه ، وهكذا مع كل يوم يمر بدأ مركز الجوازي يقوى وتنتشر أخباره. وهنا لا نستغرب إذا ما أرسل البي في كل يوم طالباً أحد رؤسائهم الذين كانوا يلقون كامل العطف وجزيل الثناء . وبدون رتوش كان البي يهدف الى محاولة التخلص من جميع رؤساء هذه القبيلة وعلى أن يتلو ذلك محاولة إبادة جميع أفرادها وهذا لن يتوفر بالطبع إلا إذا أمكن جمع جميع الرؤساء والقضاء عليهم في آن واحد ثم يلي ذلك وبسرعة مفاجأة باقي القبيلة قبل أن تدرك بداية الخطر .

ظهرت في الاثناء الاخيرة اشاعة قوية تقول بحصول البي على موافقة والده في اهداء (البرنوص) الى رؤساء الجوازي تكريماً لهم على خدماتهم وولائهم له . وفي هذه الاثناء ارسل يوسف باشا أحد المقربين له ، من أفراد هذه القبيلة ، الى بنغازي في مهمة سرية . كان هذا الرسول معروفاً لدى القبيلة لما يتمتع به من نفوذ لدى الباشا ولما كان يقدمه من مساعدات وخدمات لأفراد قبيلته وقت الحاجة . ولهذا فقد رأى البي أحمد ومساعده الامين حاكم مصراته على أن يكون هذا الرسول نائباً عنهما في الاتصال

بهذه القبيلة ودعوة رؤسائهـــا لحضور حفلة التكريم التي سيتسلمون خلالها هدية الباشا لهم والذي استعمل فـــيما استعمل من حجج الاقناع انه رأى ، لما رفض الباشا اقتراح ابنه بتكريمكم ، وجوب التدخل ومحاولة اقناع الباشا بصواب فكرة الابن التي ستزيد من ولائكم وتقضي على ما كان بين الطرفين من تنافر ، وفي هـــذا ما جعله يتحمس للفكرة بل ويطلب مني شخصياً ان اكون نائبه في هذا الاحتفـــال .

اقتنعت القبيلة بكلام أحد أفرادها الذي تكن له الاحـــترام والتقدير ، وفعلاً اجتمع شملها ووصلت الى ضواحي بنغازي مساء اليوم السابق لتحديد مـوعـــد الاحتفال . وكما هي العادة جاءت القبيلة بكامل مـــا تملك واستقرت غير بعيد عن المدينة التي ظهر فيها عدم الارتياح لدخول هذه القبيلة التي عملت في المدة القصيرة المـــاضية على غزو بنغازي ونهب ما وقع بين أيدي أفرادها. والواقع ان شعور العداء والكراهية بين سكان المدينة لم يكن خافياً على أحد من أفراد القبيلة ، ولعل في هذا ما حدا بمشائخها الى الاجتماع ليلاً وادخال بعض التعديلات على برنامـــج

الاحتفال في اليوم التالي ، والذي يتلخص في ان يكون مبعوثيهم لاستلام هدية الباشا رؤسائهم فقط وعلى ان يبقى باقي القبيلة في مخيماتهم .

في صباح يوم ٥ سبتمبر ١٨١٧ ، كان خمسة وأربعون من رؤساء القبيلة ، السيئة الحظ ، قد وصلوا في موكب كبير الى قصر الباي الذي كان بشوشاً في استقبالهم . قدمت القهوة ، بعد خطب الترحيب ، وأظهر الباي شعوراً ، كان يبدو صادقاً ، من جانبه لانهاء أزمة الخلاف بين الطرفين . وهنا وبدون أي مقدمات تدفق رجال الحرس شاهرين سيوفهم لينفذوا الأوامر التي كانت قد صدرت إليهم .مات الكثيرون في الحال ، وجر من أظهروا بعض المقاومة الى غرفة قريبة كانت قد اعدت لاعدامهم ، أما اولئك الذين سنحت لهم الفرصة بالهروب لبضع خطوات فكان نصيبهم اطلاق الرصاص عليهم ، وكان هذا هو نفس مصير تلك القلة التي استطاعت تسلق جدران القصر فقد كانت الحديقة مليئة بالجنود الذين كان عليهم أن يعدموا كل من يصل إليهم .

حمل انتهاء هذه المجزرة النكراء حركة غير عادية بين

جنود البي الذين نشروا حالة من الفزع والذعر بين سكان المدينة ، وخاصة بعد ان اصدر حاكم مصراتـــه أوامره بتحرك باقي الجنود لمفاجاةباقي القبيلة . كان ضجيج الخيالة بالاضافة الى حالة الرعب والاشمئزار بين السكان ما أضفى على المدينة حالة من الفزع والقلق يصعب تصويرها . كان علي ان ارجع وبسرعة الى القصر بغية الحماية غير انني مـا ان وصلت حتى ذهلت للمنظر الكئيب الذي فاجأني : كانت الجثث مبعثرة في كل مكان والدماء لا زالت تسيل منها بينما كان البي ممتطياظهر جواده وفي حالة اضطراب اشبه بالجنون لا لشيء سوى لأن الجنود لم يتجمعوا بالسرعة التي كان يريدها. انتشر خـــبر الواقعة وعرف بها بعض أفراد القبيلة مما مكنهم من الهرب تاركين وراءهم جميع ما يملكون . وفي هذه الاثناء كان البي يتقدم فرسانه بأقصى سرعـــة ممكنة ليفاجيء من لم يعرف بالخبر بعد : انها جريمة اخرى ترتكب إذ قتل جميع الرجـال والاطفال بدون أي رحمـة وكذا المئات من النساء اللاتي تعرضت من لم تمت منهن الى ما لا يمكن وصفه من الضرب والتعذيب .

انتهى كل شيء خلال ساعات وكانت غنائم البي بعدها:

اربعة آلاف جمل ، وعشرة آلاف رأس من الغنم ، وستة آلاف من البقر ، وكميات كبيرة من النقود وبعض الاسرى.
بعد أيام قليلة من هذا الانتقام الذي قصم بحق ظهر هـــذه القبيلة وصل الى ميناء بنغازي ذلـــك الجمع الذي أُرسل اطلب الصفح والمغفرة من باشا طرابلس ، وكانت الخطة كما اعلموا انهم سيصلون بنغازي ليشاركوا بقية قومهم في الاحتفـــال بتكريم قبيلتهم ، ومع الاسف لم يكن مصير هؤلاء ليختلف عن أقاربهم فقد قتلوا جميعاً والقيت جثثهم في مياه البحر . بعد أيام قليلة كان علينا أن نستعد للعودة الى طرابلس وبالطبع فقد كنت كئيباً وفي غاية الحزن لما شاهدته بينما البي وأتباعـــه ولو انهم غير راضين لعدم تحقيقهم إبادة كاملة لاعدائهم إلا انهم كانوا جـــد فرحين للغنائم التي حصلوا عليها .

فهرست

منشورات دار مكتبة الفكر
للطباعة والتوزيع والنشر
طرابلس - ليبيا